سورية الجديدة

كتاب الى أصدقاء الامم الصغيرة

بقلم

« أرز لبنان »

الاسكندرية
مطبعة التقدم لصاحبها محمد توفيق
مارس ١٩١٩

سورية الجديدة

سورية الجديدة

كتاب الى أصدقاء الامم الصغيرة

بقلم

« أرز لبنان »

الاسكندرية
مطبعة التقدم لصاحبها محمد توفيق
مارس ١٩١٩

أهدي هذه الرسالة الى الحزب السوري المعتدل العامل تحت رئاسة صاحب السعادة خليل باشا خياط في الاسكندرية ، فانه أظهر من الغيرة الوطنية ما يستوجب كل ثناء ، ووضع مصلحة البلاد العامة فوق كل مصلحة .

« أرز لبنان »

الاسكندرية — مارس سنة ١٩١٩

فهرس

القسم الاول

القسم الثاني

بيـان

كلمة لبنانية

اذا ذكرت سورية في بحث من الابحاث فذكرها يوجه فكر كل لبناني أولاً الى ذلك الجبل الخالد المجد ، الوافر الحرية ، منبت الارز ، ومجري الانهار والجداول والينابيع ، الذي أغدقت عليه الطبيعة صفاءها، ووهبته من اعتدال الهواء ما يسمح بنماء الجوز والنخل معاً بين أعاليه وسواحله . فهو في سورية طبيعياً ، بمثابة انسان العين أو سويداء القلب ، واجتماعياً وسياسياً ، بمقام امام الجماعة ، أو ذؤابة القوم ، او رئيس الحزب ، وهذا سر تمسكه بامتيازاته الزمنية وتقاليده التاريخيـة ، وسر ولع أهله به .

ان هذه الحرب التي قلبت كيان العالم قضت باخراج تركيا من الشرق العربي كله بعـد أن حكمته بضعـة قرون وقـد قامت شعوب هذا الشرق تطـالب بالاستقلال القومي ، ونهضت سورية تطلب الوقوف وحدها بين الأمم الحرة ، فخاف لبنان أن تسفر هذه الثورة الكونية عن تجريده من مميزاته القديمة فقام يقول — « وأنا أيضا أقف وحدي ولا احتاج الى أحـد ، حتى الولايات السورية التي تلتصق بي من كل جانب أتركها اذا كانت التدابير الجديدة تفقدني امتيازاتي ومفاخري التي قضيت الدهر في جمعها وادخارها لابنائي

وأريد أن أكون حراً كما كنت من قديم الزمان » . وهذا سر قيام جمعياتنا اللبنانية الحرة وفي مقدمتها جمعية الاتحاد اللبناني وهي من أنبلها غرضاً ومن أصحها نظاماً .

والآن انقضى دور الثورة الحربية وما يتبعها من الهدم والبتر والقطع . وجاء دور التجديد والانشاء واقامة كل نظام جديد واعادة الحياة العمومية الى مجاريها الطبيعية مع المحافظة على آمال الشعوب ومطالبها القومية العامة . وقد رأينا بين ما رأيناه من مدهش النتائج الجديدة لهذه الحرب العديمة النظير اتفاق قادة العالم على انشاء جمعية الامم تكون بمثابة « دولة الدول » أو « قاضي القضاة » ولا شك بان وجود مثل هذه القوة العادلة في الكون ينفي المخاوف القومية ويمنع اعتداء القوي على الضعيف من الوجهة الدولية في مستقبل الزمان .

ورأينا بين نظامات العالم نظاماً يجيز للبلد الواحد في البر الواحد الاستقلال بشؤونه السياسية والاجتماعية الى أبعد مدى مع بقائه متصلاً بجيرانه من اجزاء ذلك البر بصلات النظام العام على طريقة اتبعها بعض أمم الغرب فكانت سبب سعادة تلك الامم وارتقائها . ولم نجربها نحن حتى الآن ولكننا نحاول تجربتها والاستفادة منها .

فكان من مصلحة لبنان بعد رؤية هذه الضمانات العظيمة أنه يحتفظ بمركزه اللبناني ويظل متحداً مع أجزاء سورية التي هو في الواقع جبلها الاعلى .

ومن مزايا هذا النوع من الاتحاد انه يعطي لبنان الصخري

الحق في جلب غلاله من حوران وحواشيه من الشام ويمكنه من استخراج المعادن من أقاليم فلسطين والخيرات من أرض الكرك والسلط ، فضلاً عن اجتناء مشمش الشام وتفاح الزبداني وفستق حلب ، ويفتح امام رجاله المتعلمين المرتقين أبواب الوظائف في كل تلك الأقاليم ، وامام صناعه وعماله المجتهدين أبواب الرزق في طول البلاد وعرضها فلا يعودون يضطرون الى المهاجرة أفواجاً الى أميركا وأفريقيا وأقاصي الشرق والغرب .

ويقدم لبنان لجيرانه وأبناء الخؤولة والاعمام من اهل تلك الولايات بدلاً من هذه المنافع ماء عذباً وهواء نقياً منشطاً ومناخاً طيباً وصحة عظيمة . فمثله - من هذا القبيل ، مع شركائه في هذه الشركة السورية مثل الاعرابي والحضري اللذين أرادا الاشتراك في طبخ الفالوذج . وكان الخبير بطبخه الاعرابي ، فسأله الحضري « ماذا يقدم كل منا من أجزاء « الطبخة » ؟ فأنشد البيت الآتي مفخماً فيه لفظ ما يقدمه هو ومخففاً لفظ ما يطلب من شريكه تقديمه قائلا :

منك الدقيق ومني النار اضرمها
والماء مني ومنك السمن والعسل

والذين يقولون انه يخشى من الاكثرية في سورية ان تضغط على أهل لبنان يخطئون خطأ عظيماً لا مبرر له ، فان لبنان اذا نهض حسب نظام الاتحاد العام يكون هو القوة العاملة في سورية كلها ويحق لابناء الشام وحوران وحلب — ولا أقول فلسطين — ان يخافوا من شدة نفوذه لان لكل بلد مزايا خاصة يمتاز بها ومن مزايا لبنان انه

يخرج رجال سياسة وخبراء اختصاصيين وموظفين اكفاء وكتابا ومترجمين يشهد لهم بطول الباع في التحرير والتحبير • أو لا ترى انه لم تكد الحكومة العربية الجديدة تفتح باب دارها حتى هرع الابنانيون الى مقاعد الحكم والسلطة فيها ؟ اسأل الان من هم موظفو القضاء والادارة ومن هم المترجمون والمنظمون وأطباء الصحة في حكومة سورية الجديدة تجد ان اكثرهم من اهل لبنان • والذين يتقدمون الان لا يتأخرون غداً • ان لبنان ليسعد ان شاء الله بسورية كما تسعد سورية بلبنان فالى هذا الاتحاد الوطني الجديد ايها المواطنون الكرام •

* * *

كلمة عن هذه الرسالة

ان كاتب هذه السطور كتب هذه الرسالة أولاً باللغة الانكليزية — على ما به من العجز والضعف — اذ رأى الحاجة ماسة الى ذلك • وقد طبعت بالانكليزية على حدة في الشهر الماضي والان تظهر معربة كما ترى • ويجب ان أؤكد لكل مواطن كريم اني كتبت كل كلمة مدفوعاً بعامل الوطنية المحضة •

بيان الرسالة الانكليزية

« قد يعد تطاولا مني بصفتي لبنانيا . ان أنشر هذا الكتيب باللغة الانكليزية • غير ان لي عذراً يشفع هو ان هذه الرسالة ليست سوى التماس مقدم « الى أصدقاء الامم الصغيرة » يوضح مطلباً حيوياً •

وغرضي من الكتابة هو ان ابسط لأبناء الديموقراطيتين العظيمتين الناطقتين بالانكليزية ، اللتين تحكمان وتسوسان خمسماية مليون من بني البشر ، بياناً عن الحالة السياسية في سورية بلغتهم التي ألفها الشرق الادنى كثيراً منذ اكثر من نصف قرن من الزمن ، بقصد ايضاح مطالب وطننا الحقيقية للدوائر الرسمية الحرة في اوربا واميركا ورجاء استمالة الرأي العام اليها .

لقد صار الدفاع العلني في هذه القضية من الزم الامور بعد ان كثرت مساعي الساعين فيها لغايات معينة ، ووفر ما سال من اقلام كتاب السياسة الباحثين في المسألة السورية من جهة واحدة بطرق غريبة منظمة لخدمة مآرب مخصوصة لا تتفق مع أمانينا الوطنية العامة .

ان كل سوري صميم ليغتبط في هذا الوقت الذي تخرج فيه سورية من حكم الظلم والاستبداد ، بان يرى سلطان القوة مهزوماً شر هزيمة وان يشهد دك حصونه القديمة — السياسة السرية ، والدسائس السياسية ، ووضع مختلف الاساليب والصيغ الرسمية لتعريف « الحق » متى طلبه القوي وتحديده متى طلبه الضعيف — لانه اذا أزيلت هذه الحوائل والعوائق من طريق الشعوب الناهضة فأن سورية تزهو وتسمو وترتقي في العصر الجديد وتصير عضواً نافعاً في عائلة الامم المتمدنة في العالم .

اذا كانت جمعية الامم — وهي أسمى مشروع انشيء لترقية نظام العالم منذ الخليقة — تحقق أماني سورية الجديدة وتختار لها دولة كبرى خالية من الاغراض تشد أزرها الى ان يصير في

استطاعتها أن تقف وحدها بين الأمم الحرة . فان هذه البلاد تقوم بحمل كبير من الواجبات الدولية في الشرق وتخدم المدنية العصرية أجل خدمة فيه ، ثم أنها فوق ذلك تزيل كل خوف من تجدد المسألة الشرقية بشكل جديد .

ان كاتب هذه الرسالة الواقف على دخائل السياسة السورية الأهلية وقوف من يرى ويسمع ويهتم ويلمس الحوادث في مواقعها يغتنم هذه الفرصة ليظهر لأصدقاء الامم الصغيرة في اوربا وأميركا ، الذين يهتمون كل الاهتمام بانقاذ سلام العالم من أخطار المستقبل وشرور الحوادث التي في ضمير الغيب — انه اذا لم يسمح لسورية بالاحتفاظ بوحدتها . واذا لم تنتدب دولة لا مطمع لها لتنظيم الحكم الجديد فيها ، فان الحالة التي لا بد من وجودها حينئذ تتطور فتصير مشكلة دولية خطيرة . »

* * *

سورية الجديدة

القسم الاول

١

سورية في هوجاء الحرب العامة

لا ريب في أن هذه الحرب العظمى — حرب الامم — العديمة النظير التي شبت في ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ وانتهت في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ من شأنها أن تبرر وقوع أي انقلاب سياسي وأي تغيير دولي في كل بلاد اشتركت فيها كثيراً أو قليلا أو وقعت تحت تأثيرها بشكل من الاشكال . وغرضنا الآن أن نبحث في ما فعلته هذه الحرب في البلاد الواقعة شرقي البحر المتوسط من بلدان السلطنة العثمانية .

لما قامت ايطاليا في سنة ١٩١١ تضرب الترك في طرابلس الغرب وتخرجهم منها هال الامر الكاتب السياسي القدير المرحوم

وليم ستيد صاحب « مجلة المجلات » الشهيرة فلم يطق حملتها وقال أن وزراء الخارجية فى أوروبا أصيبوا بمس من الجنون واقترح أن تؤلف لجنة من الاطباء لفحص أدمغتهم . ولما أزالت النمسا ظل السيادة التركية عن البوسنة والهرسك على أثر وقوع ثورة الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨ عطف العالم المتمدن على أحرار الترك وقبض هؤلاء مليونين من النمسا ثمناً لتخليهم عن تينك الولايتين لها .

أما الآن فقد اختلفت الحال اختلافاً كلياً ، فان تركيا أضاعت كما هو ظاهر وادي الفرات ووادي الدجلة وأرض الحجاز المقدسة وأرض فلسطين المقدسة وأرض سورية الفينيقية وكل بلاد العرب ، ومع ذلك فأن دوائر السياسة وصحف العالمين لا ترى فى كل ذلك ظلماً يقع علي تركيا المبتورة الاعضاء . وأهم الاسباب التي يراها الساسة كافية لفصل هذه الاراضي الواسعة سببان :

الاول — أن تركيا أقدمت بلا موجب على المقامرة بأملاكها تحت نفوذ المانيا .

والثاني — أن البلدان المتقدم ذكرها تقطنها عناصر غير تركية تتوق منذ أجيال الى الحرية .

ومن الناس من يقول فوق ذلك انه خير لتركيا ان تفرغ وسعها فى سبيل ترقية ولاياتها التركية من أن تظل باسطة سلطتها على عناصر متذمرة مثل الارمن والعرب ومن شاكلهم .

ولا شك بان السببين الاولين مستندان الى أصل صحيح .

ثم أن التصفية العامة الجارية الآن فى العالم تجيز تجربة عظائم الامور. فالشعوب التي هاجها الانقلاب الجديد طفقت تشيد بذكر أمجادها القديمة وتعرض مطالبها التاريخية ملتمسة حياة سياسية جديدة أو «أماكن تحت الشمس» كما يقال في عرف السياسيين.

لم يكن فى الناس أحد يتصور ولو في الحلم ان روسيا والنمسا والمجر يخرج منها ما استقل من الدول والحكومات الجديدة ولكن الحقائق لا تدع مجالا للخيالات. ويظهر ان حوادث الزمن الحاضر استفزت روح الديموقراطية في العالم وانبرت لتحقيق أماني كل شعب مخفوض الجناح ولمنع القوة من التغلب على الحق. فاذا تحققت الوعود المزهرة التي وردت فى ما ألقاه الدكتور ولسن رئيس الولايات المتحدة من الخطب الرسمية فان التاريخ يسجل للعالم الجديد مأثرة تحرير الامم الصغيرة كما سجل لاوروبا فى القرن الثامن عشر مأثرة منع الرق وابطال تجارة الرقيق.

أن هذه العملية الضخمة التي أجريت على جسم الكون جاءت لكل أمة من الامم بما قد تنوء بحمله من أعمال التجديد والانشاء وأوجدت فى الشرق الادنى ولا سيما فى البلدان العثمانية من هذا الشرق مسائل معقدة فى غاية الخطورة. وما سورية الا من تلك البلدان ومسألتها من أشد المسائل تعقداً.

حررت سورية من مظالم الترك بقوة جيش الجنرال اللنبي وهذا مما يصرف الفكر للوهلة الاولى الى ان حكومة الجنرال اللنبي هي التي تتولى ادارة شؤون البلاد المحررة حديثاً — من جبال طوروس

شمالا الى رفح فى الجنوب — لان سورية هي عبارة عن هذه البلاد الواقعة بين الاناضول ومصر قائمة بارزة الصدر — وصدرها لبنان — في مقدمة بلدان آسيا تفاخر البحر المتوسط بان طولها هو طول ساحله الشرقي . ولكن سورية الفاتنة لها من العشاق اكثر من واحد ، فبينما نرى « جون بل » يلقي نظرات ذات بال علي فلسطين ويرفع بصره الي الشمال ، نرى حليفه الباسل فتي السين يحاول تطويق خصرها بذراعيه ، ونرى البطل العربي مقبلا من الصحراء لتقبيل محياها الاموي الجميل •

هذا وأميركا التي كان لها الفضل العظيم فى تعليم سورية نحواً من قرن من الزمن والتي أرسلت اليها من رجالها مثل أولئك المربين المصلحين الدكتور فانديك والدكتور ايلي سميث والمستر سيمون كلهون والدكتور دانيال بلس والدكتور هنري جصب والمستر وليم برد وغيرهم لترقية المدنية العصرية في ديارها — تنظر بعطف عظيم الى تلميذتها الواقفة موقفاً حرجاً في الحالة الحاضرة •

وقد خصت أميركا سورية بكثير من المكارم فى كل آن ولا سيما فى السنوات الاربع الاخيرة • فانها هي التي أرسلت اليها علي أثر شبوب الحرب سفينتين حربيتين من سفنها لنقل المهاجرين والمضنوكين من أهلها الى مصر ولم تكف عن هذه الخدمة الانسانية النبيلة حتى أوصد الترك أبواب سورية فى وجه العالم • غير ان ذلك لم ينسها سورية فانها اوفدت اليها لجنة من جمعية الصليب الاحمر لاسعاف المنكوبين واغاثة المرضى والمحتاجين من ابنائها وفتحت لذلك

اكتساباً اظهرت فيه عظيم السخاء .

فهذه المحامد والمكارم التي أتاها ذلك الرجل العظيم ذؤابة العالم الجديد — العم سام — مع ما قرن بها من نبل سياسته العامة وقيامه مع الحق خصما للقوة ووقوفه بجانب الامم الصغيرة أفعمت قلب سورية اعجاباً وادخلت حاسة الطمأنينة على قلبها المهموم ، فقد وقفت فى وسط عجيج العاصفة التي حطمت السفينة التركية فى الشرق تجيل نظرها فيما حولها خائفة مذعورة لعلها ترى معيناً يسير بها الي ساحل السلامة فأبصرته مقبلا يمد يد المساعدة اليها ورأت انه رجل يعيش ليخدم البشرية ويجعل الحياة تستحق عناء الوجود :

اذا كنت تحيا لنفع الورى ‏ ‏ ‏ ‏ وتهدي السبيل برأي سديد
وتفعل فعل كبار النفوس ‏ ‏ ‏ ‏ لترفع نفس الضعيف المسود
فأنت تعزز شأن الحياه ‏ ‏ ‏ ‏ وأنت تفسر معنى الوجود [١]

---

(١) أصل هذه الأبيات للشاعر الانكليزي تومسون وقد استخدمها كاتب هذه الرسالة في النسخة الانكليزية وعربها هنا بقلمه .

٢

مميزات سورية

أن سورية في الحقيقة لم تحب التركي اذ كان غريباً عنها وكثير الدسائس فيها . فلقد فرق بين ابنائها واضطهد مبادئها وداس حقوقها ، وكلما كانت تحاول ان ترفع شأن حضارتها كان هو يقيم الحوائل في سبيلها ، ولولا ما لسورية من المزايا الخصوصية التي أسبغتها عليها الطبيعة وصانتها التقاليد ولولا اعمال المرسلين ومجهوداتهم فيها لكانت الآن متأخرة فى ميدان الحضارة كأكثر أقسام الاناضول وبلاد العرب وما بين النهرين وغيرها من بلدان السلطنة العثمانية المتسعة الاطراف التي عاشت أجيالا تحت سيطرة الترك ونفوذهم الوحيد .

أما المميزات المشار اليها فهي هذه :

اولا — وجود جبل لبنان قائماً فى وسط البلاد عالي الذرى يناطح السحاب تياهاً بارزه الخالد المجد الناشر ظله — ظل الحرية الوارف — علي ارجاء تلك الربى ، وغني عن البيان ان لبنان تمتع بالاستقلال الداخلي منذ القدم وكان على الدوام ينبوع الفخر الوطني والكرامة الذاتية في سورية .

وقد نال في سنة ١٨٦٠ معاهدة دولية تؤيد مركزه ، وهذا المركز الممتاز شجع أهالى البلاد على تحسين الاحوال وعلى الاحتكاك بالاوربيين والاميركيين وادخال الاصلاح

الى البلاد واقتباس نظام التعليم العصري وكان لهم من حسن أخلاقهم ما ساعدهم مساعدة عظيمة على السير في طريق النجاح والفلاح •

ثانياً — وجود مدينة القدس الشريف في فلسطين • فان هذه المدينة المقدسة تجتذب اليها الحجاج والسياح والزائرين من كل قطر في العالم • وهذه المزية أتت لسورية ببركات كثيرة ومنافع جمة •

ثالثاً — مهاجرة اللبنانيين وغيرهم من أبناء سورية الى مصر وأميركا واستراليا وجنوبي افريقيا وغيرها من الاقطار • فان هذه المهاجرة جلبت الى البلاد كثيراً من الافكار والمبادىء الديموقراطية الحديثة •

رابعاً — سلامة أخلاق الشعب بوجه عام من الانحطاط وذكاؤه واجتهاده العظيم •

ان المرسلين الاميركان أحدثوا في سورية ولبنان نهضة عصرية جليلة • ولا حاجة الى تفصيل ما أسدي الى البلاد من الجميل بفعل هؤلاء المصلحين الاتقياء ، لاني أعلم ان متتبعي تطورات العمران قدموا للشعوب الناطقة بالانكليزية كتباً عديدة ومؤلفات ضخمة تشرح ما قام به المرسلون من الاعمال العظيمة والخدم الجليلة للعلم والحضارة بنشر المعارف وبث نور المدنية في جميع انحاء البلاد •

فان أول مرسل اميركي نزل في سورية في شهر فبراير سنة ١٨٢١

بقصد تأسيس وكالة للارسالية فيها . وأول بناء أنشيء لتعليم البنات في البلاد شيده الاميركان في بيروت سنة ١٨٣٥ .

وقد بدأت مدارس الاميركان بالعمل في سورية قبل أن توجد الحكومة العثمانية نظاماً رسمياً للمدارس بنحو ٤٠ سنة لان الحكومة لم تسن ذلك النظام وتوجد مشروعاً للتعليم الاميري الا في سنة ١٨٦٩ .

وكان انشاء المطبعة الاميركانية في بيروت فاتحة عصر جديد لنشر المعارف والعلوم والآداب العربية . ويستفاد مما كتبه الدكتور هنري جصب في كتابه المسمى « ثلاث وخمسون سنة في سورية » الذي طبع سنة ١٩١٠ — ان مطبعة الاميركان في تلك المدينة الزاهرة طبعت حتى تلك السنة نحواً من ٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من الصفحات من جميع انواع المطبوعات . ومما قاله انها كانت سبباً لتحريك الهمم وانشاء مطابع عديدة جديدة في بيروت وجهات أخرى من سورية وكانت نتيجة ذلك ان ملئت البلاد بالصحف والمجلات وتيقظ الناس لحياة أدبية جديدة .

وفي سنة ١٨٦٠ حذا المرسلون الانكليز حذو الاميركان ففتحوا المدارس في فلسطين وبعض مقاطعات لبنان وتبعهم في نفس السنة الالمان والجزويت الفرنسيون وغيرهم .

جاء كل هؤلاء الناس لتأسيس معاهد العلم والمستشفيات والملاجيء وغير ذلك من المنشآت الحديثة فقام أهل البلاد يفعلون فعلهم مقتفين آثارهم لا نقلاً ونسخاً فقط بل احداثاً وانشاء فأحدثوا في البلاد كثيراً من ضروب الاصلاح من الوجهتين العلمية والاجتماعية .

من ذلك ان المرحوم العلامة بطرس البستاني ، الذي استعين به في مهمة ترجمة التوراة الى اللغة العربية بادارة الدكتور ايلي سمث بالاشتراك مع الدكتور فانديك الكبير من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٦٥ ، نهض وحده بعد ذلك بمشروع جليل هو تأليف قاموس عربي يوافق النهضة ، وقد ألف « محيط المحيط » في مجلدين كبيرين . ثم أقدم على شغل أعظم من ذلك وهو تأليف دائرة معارف باللغة العربية ولم يكن للعربية شيء يقال له « انسكلوبيذية » فاخرج للناطقين بالضاد ثمانية مجلدات كبيرة من « دائرته » ثم مات تاركاً اتمام ذلك العمل العظيم لابناء عائلته العلماء فقاموا بعده بوضع ثلاثة مجلدات أخرى من الانسكلوبيذية ، وآخرها المجلد الحادي عشر ألفه العلامة سليمان افندي البستاني ناظم الياذة هوميروس بالعربية (احد أعضاء مجلس الاعيان العثماني ومن الوزراء العثمانيين السابقين)

وبالاجمال يقال انه منذ وضع الاميركان حجر الزاوية في بناء نظام التعليم الحديث في سورية خطت البلاد خطوات واسعة في سبيل المدنية الراقية رافعة نفسها الى مقام تفاخر به بلاد الترك الاصلية لان النهضة الادبية جاءت بطبيعة الحال باسباب النجاح اجتماعياً وتجارياً وصناعياً . وجدير بالذكر في هذا الصدد أن مدينة بيروت كانت في سنة ١٨٢٥ ، يوم دخلها أول المرسلين الاميركان ، عبارة عن مدينة صغيرة تشغل مساحة ٣٠٠٠ قدم من الشمال الى الجنوب و ١٥٠٠ قدم من الشرق الى الغرب ممتدة نحواً من خمسة أميال من قاعدة لبنان الى

البحر وقد أخذت من ذلك الحين في النمو والارتقاء حتى كبرت وصارت أجمل ثغر في الشطر الشرقي من ساحل البحر المتوسط ومن أوفر ثغور هذا البحر نجاحاً وصار عدد سكانها نحواً من ٢٠٠ ألف .

وقبل هذه اليقظة الحديثة لم يكن أهل سورية ولبنان يهاجرون من بلادهم الى بلدان بعيدة الا نادراً . وكانت توجد في لبنان في ذلك الوقت أغنية عامية يقال في أولها « زوجك يا مليحة راح للشام وحده » وهي تدل على انه كان من المخاطرة ان يذهب المرء وحده من لبنان الى دمشق الشام . ولكن الحالة تغيرت كل التغير منذ سنة ١٨٧٦ اذ طفق السوريون يسافرون الى جميع الجهات ويجتازون البحار الى أقصى أطراف الارض فاتقين أجدادهم الفينيقيين من هذا القبيل .

درست سورية أطوار الحياة في مختلف الامصار والبلدان وحيث كانت شديدة الرغبة بالانتفاع من استعدادها الطبيعي للنجاح أرسلت الالوف من أبنائها الى البلدن الاجنبية ليشتغلوا في احوال أكثر مناسبة لهم وتحت احكام افضل من احكام بلادهم . وذلك لانه كان عسيراً جداً بل كان في غالب الاحيان مستحيلاً على ذوي الجد والعمل من ابناء البلاد الناهضين ان يجدوا مجالاً متسعاً في الوطن لاستخدام قوى الابتكار الكامنة فيهم تحت حكم حكومة جامدة يمثلها في اماكن كثيرة موظفون مرتشون ممن لا يهمهم امر سورية ولا يكترثون بضرورة ادخال الاصلاح اليها ،

وذلك لانه من جهة لم يكن لدى الحكومة من المال ما تستطيع توفيره للقيام بمشاريع الاصلاح ولان الحكومة كانت ترى على الدوام منهمكة بحل المشاكل السياسية بين داخلية وخارجية فلم يكن عندها من الوقت ما يمكنها من توجيه عناية خصوصية لاجراء الاصلاح . وقد بعثت سورية الى مصر عدداً كبيراً من الرجال المتعلمين من صحافيين وكتاب ورجال طباعة واطباء ومحامين ومترجين وكتبة حسابات فرحبت بهم مصر ، وخصوصاً في دوائر الحكومة فيها وفي السودان منذ بدء الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ ، وأرسلت تجار « كومسيون » الى المراكز التجارية في اوربا وكثيراً من العمال وصغار التجار الي أميركا . والتجار السائحين الى اليابان والصين وانحاء اخرى من بلدان الشرق الاقصى . وارسلت رجال سياسة ووظائف الى الاستانة ومستثمرين الى بعض الاقاليم الغير المتمدنة من افريقيا .

وهذه المهاجرة الكثيرة من سورية أكسبت البلاد موارد اقتصادية جديدة وقوى اجتماعية وعقلية ذات شأن ، اذ صار السوري يقضي السنين الطوال بين الناس بالغين اعلى درجات العمران والمدنية محتكاً بهم متعاملاً معهم ، ثم يرجع الى وطنه حاملاً من بلادهم كثيراً من المحسنات الاجتماعية والمبادئ الديموقراطية السامية والعادات الجديدة . والوف من الفلاحين والعمال ذهبوا الى أميركا بحالة الامية ثم عادوا الى الوطن متعلمين مهذبين . والامر الوحيد الذي استعصى على السوريين فلم يستطيعوا اجراءه تحت حكم السلطنة العثمانية هو الاصلاح

السياسي — ان ذلك كان من المستحيلات وظل كذلك الى ان ذهبت قوات الحلفاء فحطمت الهيكل السياسي التركي تحطيماً لا تقوم له قائمة بعده فكان ذلك سبب غبطة العرب الذين طالما تاقوا لنهضة سياسية تتفق مع شرفهم الوطني ومركزهم الاجتماعي .



ما لنا وما علينا

أن ورودنا القومية ليست بدون أشواك بل يجب ان نقول اعترافا بالحقيقة انها كثيرة الاشواك . ان سكان سورية ، ولبنان من اجزائها الرئيسية ، ينتمون الى اصل واحد فالكل عرب سوريون . غير أنهم لم يتمتعوا منذ عصور بالوحدة القومية . وحدة في تركيا ؟ امر مستحيل . لقد كان محظورا في عهد عبد الحميد كل شيء يمكن أن يؤدي الى توحيد العمل وضم القوى حتى تأليف الشركات التجارية .

فعرى الوطنية التي ترتبط بها عناصر الامة ارتخت في سورية مع مرور الزمن وانفصمت في بعض الحالات بالكلية تحت حكم الترك . وذلك يرجع الى الاسباب الآتية :

١ — كان الترك يعولون فى حكمهم علي قاعدة « فرق تسد » فلم يكن فى استطاعة سورية المتعددة الطوائف ان تتضامن وتتآلف تحت ذلك الحكم .

٢ — عدم وجود نظام للتعليم العام في تركيا ، ونظام المعارف الذي كانت تتبعه الحكومة العثمانية كان جنسياً اكثر منه عمومياً . وسورية لم تنل منه فائدة تستحق الذكر فانها مع كثرة المدارس الاميركية والاوروبية فيها للتعليم الراقي لم يكن يوجد فيها من

المدارس التركية غير معاهد قليلة العدد في دمشق الشام ومدينة بيروت وحلب الشهباء ولم تكن في لبنان مدرسة واحدة عثمانية .

ومعلوم ان الارساليات الاميركية والاوروبية انما انشأت المدارس في المدن والمقاطعات التي رأت فيها مجالاً حسناً لانجاح الاغراض الرئيسية التي جاءت الى البلاد من اجلها ولم يكن الترك ينشئون مدارس حيث الناس في حاجة الى المدارس ، وكانت النتيجة ان جهات معينة في سورية امتلأت بمعاهد العلم وموارد العرفان وظلت جهات اخرى منها بدون مدارس بالكلية . فبيروت ولبنان مثلا تكثر فيهما المدارس الحديثة ولا سيما مدينة بيروت فانها دار علم وتعليم ، ولكن المقاطعات الريفية من ولاية الشام كالقنيطرة والجاذور ليس فيها شيء من هذه المعاهد . ثم انه توجد وراء حوران براري واسعة تقطنها قبائل عظيمة من العرب الرحل الذين يعيشون في المضارب عيشة بدوية محضة كما كان يعيش أهل البادية في القرون الوسطى بعيدين عن كل سلطة رسمية .

فمدارس المرسلين الاميركان والانكليز والفرنسويين و الالمان والروس والطليان مع ما حذا حذوها من المعاهد الوطنية والرسمية اخرجت للقطر السوري ثماراً اجتماعية مختلفة فاذا قلنا انها نشرت العلوم والمعارف في البلاد وجب ان نقول ايضاً انها لم توجد في البلاد أمة متحدة بوجه من الوجوه .

وغني عن البيان ان المرسلين الاجانب لم يأتوا الى سورية الا لاغراض معينة فالبروتستانت منهم جاءوا مبشرين بالانجيل بقصد

نشر الأنجيل بين أهلها والجزويت جاءوا يبشرون بالأنجيل اللاتيني من قبل دولة لاتينية والروس جاؤا ليرعوا الكنيسة الارثوذكسية التي كان يحميها القيصر الكبير • والايطاليون جاءوا لكي يظهروا للعالم انهم يشتركون في خدمة الانسانية في سورية •

على ان أهل البلاد مع علمهم بهذه الاغراض كانوا ينظرون بعين الاهمية الى ما يقوم به أولئك المرسلون الصالحون من الاعمال المدنية مستفيدين بقدر الاستطاعة من المنافع العالية التي تصل اليهم بواسطة المدارس •

فبلاد يجري فيها التعليم المختلط متفرقاً من مصادر متعددة كما تقدم هيهات ان يأتيها هذا التعليم بثمار وطنية • وهذا الاختلاط من شأنه ان يوجد تصادماً في الاراء والمبادىء اينما كان لان من يقتبس العلم في مدرسة جرمانية يقتبس افكاراً جرمانية ومبادىء جرمانية وهكذا قل عمن يتعلم في مدارس الانكليز ، على انه بقدر ما يكون اصحاب المدارس بعيدين عن الاغراض السياسية يكون تعليم مدارسهم أقرب الى الغاية القومية في البلاد • فمدارس الاميركان التي تجري في سورية على نظام خاص قائم على المبادىء الديموقراطية الحرة تابعة لحكومة خالية الغرض من الوجهة السياسية أخرجت رجالاً حقيقيين لسورية ولكن مدارس الجزويت مع الاعتراف بفضلها العلمي أخرجت آلات سياسية وقضت على المميزات السورية الخاصة في دائرة نفوذها قضاءً مبرماً •

قال الدكتور جصب الاميركي في كتابه « ثلاث وخمسون سنة في

سورية ، مشيراً الى الحركة اللاتينية التي يراد منها اخضاع الاراضي المقدسة ما يأتي : « ان فرنسا تطرد الجزويت من فرنسا وتنفق الملايين من الفرنكات كل سنة تعضيدا لهم في تركيا حيث يكونون وكلاء سياسيين ومعلمين وذوي دسائس » الى ان يقول « ان للاتين موارد لا تنضب من المال والرجال والنساء . وقد قال أحد رجال الحركة اللاتينية منهم مرة انهم مأمورون بان ينشئوا المدارس في كل مكان توجد فيه مدارس بروتستانتية واذا أمكن ان تقام تلك بجوار هذه فيكون ذلك أفضل لنيل الاغراض المرومة .

٣ — اختلاف العناصر والمذاهب وعدم وجود مصلح يوفق بين مختلف الفرق . وقد قال الكولونيل تشرتشل في كتابه عن سورية ولبنان ما مؤداه « ان ضربة سورية الكبرى هي كثرة الطوائف وتنافر المذاهب ولا يسود السلام في تلك الديار ما لم تتآلف هذه العناصر المتنافرة بقوة التعليم العام »

٤ — نشر الدسائس السياسية (قبل الحرب) بين الطوائف المختلفة .

٥ — قلة وسائط المواصلات الحيوية كالبوستة والتلغراف وعدم وجود التلفون قبل الحرب في جميع أرجاء سورية .

وقد كان من النتائج الطبيعية لهذه العيوب التي يجب أن تلقى تبعتها على الترك في جوهر الامر أن أجزاء سورية اتخذت لانفسها مميزات مختلفة حسب طبائع الاقاليم فيها . فلبنان

اتبع سياسة الاعتماد على النفس في القومية محافظاً على تقاليده القديمة ومبتعداً عن السلطة التركية بقدر استطاعته .

وحوران أحرزت نوعا من الاستقلال الداخلي السياسي بقوة السلاح من الحكومة العثمانية . ولم تظهر فيها روح الاستقلال في وقت من الاوقات أكثر مما ظهرت وتجلت في هذه الحرب حيث وقفت وحدها في البلاد محجمة عن الاشتراك في الحرب مع الترك وتمتعت بأسباب الراحة والطمأنينة بينما كانت بقية أرجاء سورية حولها تتضور جوعاً تحت ضغط الحكومة التركية المصطبغة بالصبغة الالمانية .

ثم أن فلسطين تشغل مركزاً ذا شأن في سورية لوجود المدينة المقدسة فيها مع انها كانت في عهد النظام البائد عبارة عن متصرفية بسيطة من ولاية بيروت .

وولايتا الشام وحلب من سورية عاشتا أجيالاً طوالاً تحت نفوذ الخلافة وكان الاهالي فيهما يفضلون ان تكون لهم حكومة عربية غير انهم لم يكونوا يريدون ان يزعجوا حكومة الخليفة ولكنهم بعد ثورة الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨ مالوا الى تعضيد سياسة اللامركزية .

ومهما قيل في الاختلافات السياسية الناشئة بين العناصر السورية تحت حكم « فرق تسد » فان أجزاء البلاد المتقدم ذكرها لم تجزيء في زمن من الازمان مصالحها المشتركة من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية . فان أبناء الطوائف المختلفة من سكان سورية لهم اخوان في كل أقاليم البلاد ، فأهل فلسطين مثلاً لهم أقارب من

عائلاتهم في لبنان وحوران والشام وحلب . ولغة البلاد واحدة وطبيعة الارض واحدة تخرج محاصيل قطر واحد والمواصلات بين شمالي سورية وجنوبي سورية حيوية مثل المواصلات بين الوجهين البحري والقبلي في القطر المصري .

أن لبنان يتناول ٨٠ في المئة من غلاله من حوران والجاذور ، وحوران تتناول بضائعها من دمشق وبيروت ، وبيروت تعول في تجارتها النامية على داخلية سورية ولا يطيق أقليم من أقاليم البلاد الانفصال اقتصادياً واجتماعياً عن الاقاليم الاخرى .

وقد قالت جريدة المقطم الغراء في مقال نشرته في ٢٨ أغسطس سنة ١٩١٨ عما ألم بسورية من الملمات في هذه الحرب ما يأتي بهذا الشأن :

« أما نحن فاذا ذكرنا السوريين عنينا بهم أهل الشام وحلب ولبنان وفلسطين جميعاً كما كانوا منذ أزمان . فما وصلته الطبيعة لا تفصله الصناعة وما جمعه الله لا يفرقه انسان . »

يمكنني أن أعيش مع مواطني الماروني تحت حكم مستقل ولكن لا هو يستطيع أن يعيش بدون خبز ولا أنا ، فكلانا يجب ان يجلب قمحه من داخلية سورية .

ثم انه لا ينتظر من الفلاح الحوراني ان يجتاز « الحدود » — بتقدير فصل البلاد من كل وجه — الى لبنان لبيع غلاله فيه بعد دفع الرسوم الجمركية . ويترك سوق دمشق الاقرب اليه والافضل عنده لانه لا يكلفه من النفقات غير ما اعتاد دفعه من

قديم الزمان .

ثم ان ابن عكا لا يوافق على سياسة الفصل والبتر متى عرف انه اذا أراد ان يزور أخته في صور وجب عليه ان يأخذ جوازاً للسفر الى « بلاد أخرى » . ان هذه التغييرات غير طبيعية ولا يقبلها التصور .

اننا بالرغم مما يعتور مجموعنا من العيوب الاجتماعية نجد في أنفسنا شجاعة أدبية وراثية تجري في عروقنا وتجعلنا ننظر بعين المستقبل الى ذريتنا كما ننظر بعين الماضي الى أسلافنا ، وتحديد الرجل في عرف شكسبير هو من ينظر الى الماضي والى المستقبل معاً . ففكرة التوارث التي تضمن مبدأ الحفظ ومبدأ التمليك قوية في افكارنا ، والديار التي سلمها أجدادنا الينا هي لنا ويجب ان نحفظها لنسلمها الى ذريتنا .

السوريون لا توجد بينهم عناصر أجنبية ، واختلاف النحل والمذاهب في الشعب لا يجعل الطوائف غريبة عن بعضها ، والجميع مستعدون على الدوام لازالة ما بينهم من الفوارق المحلية متى رأوا حكمهم في يد حكومة عادلة تلم شملهم وتجمع شتيتهم . وقد أظهروا هذا الاستعداد الكامن فيهم في ظروف مختلفة ولا سيما على أثر اعلان الحكم الدستوري في المملكة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، فان شيوخ المسلمين جعلوا يتآخون مع كهنة المسيحيين ويقبل بعضهم بعضاً في شوارع بيروت . وقد حذا حذوهم غيرهم من أبناء الشعب ولو أن ذلك الحكم الدستوري

سار سيره الحقيقي في تركيا لظل التآخي جارياً مجراه الطبيعي في البلاد ، وقد كان طبيعياً لان ما تظهره الحوادث من العواطف الوطنية والشعبية لا يكون فيه رياء ولا تصنع .

ثم ان الدول الاجنبية لا تستطيع ان تقول ان لها « حقوقاً ومصالح » سياسية في وطننا تجيز لها التداخل القهري في شؤون البلاد ، والعراقيل الدولية لا وجود لها في هيئتنا الاجتماعية التي هي سورية خالصة .

من مزايا سورية أن لها ذاتية مجسمة تحلها محلا ممتازاً في الشرق الادنى . وهذه الذاتية لها من القوة والجاذبية ما يكفي لتحويل الاجانب الذين يعيشون فيها عن مميزات قوميتهم الاجتماعية — من حيث اللغة والعادات والاخلاق — والحاقهم بالهيئة السورية من هذه الوجوه . وكاتب هذه السطور يستطيع ان يعد عدداً كبيراً من العائلات الاوروبية التي ضمتها سورية الى أهلها وأكثر المرسلين الاميركيين الذين يأتون الى بلادنا للخدمة الدينية والعلمية تطيب لهم الديار وتستهويهم أيامها فيحبونها ويتعشقون نظام حياتنا الاجتماعية وآداب لغتنا وكثيرون منهم يقضون العمر بيننا .

أن العلامة الطيب الذكر الدكتور كورنيليوس فانديك كان مؤلفاً عربياً لا يجارى وكان له كثير من مميزات السوريين وكان في منزله يلبس العباءة السورية واذا زاره زائر يذكر له كثيراً من الامثال السورية والاشعار العربية بفصاحة عظيمة وكان في

شيخوخته يردد امام زواره كثيراً من الابيات التي نظمت في وصف الشيخوخة وحاجات الشيوخ . وقد زاره بعض أعيان لبنان مرة في يوم شتاء كثير البرد فقام يحرك النار في الموقد قائلاً :

اذا جاء الشتاء فادفئوني فان الشيخ يضعفه الشتاء

وكان الدكتور جصب يقول بعد أن قضى زمناً طويلاً في سورية « صرت استسهل استخدام العربية في الوعظ أكثر من الانكليزية . »

وقد عاش المستر كلهون السنين الطوال في بلدة عبيه بلبنان فأحبه الأهالي واشتهر بينهم بالصلاح والاخلاق الكاملة فدعوه « قديس لبنان » .

كثيرون من الاوروبيين والاميركيين الذين أقاموا في سورية واحتكوا بالسوريين شهدوا بما للبلاد من المواهب الجليلة وبما لأهلها من المزايا . واني مع تذكري المثل العربي القائل « مادح نفسه يقرئك السلام » أغتنم هذه الفرصة لانقل لقراء هذه الرسالة ، لمنفعة بني وطني في هذا الوقت ، ثلاث شهادات عن أخلاق السوريين واقتدارهم ونشاطهم . الأولى أداها رجل من كبار رجال العلم والصلاح من المرسلين الاميركيين وهو الدكتور هنري جصب . والثانية أداها رجل من اكبر رجال السياسة ومن أشهر رجال الاصلاح في العصر الحديث وهو اللورد كرومر . والثالثة من الصحف . وهي كما ترى :

* قال المستر جصب في كتابه « ثلاث وخمسون سنة في سورية » ما يأتي :

« اني بعد اقامة أربع وأربعين سنة في سورية أؤدي بمزيد السرور شهادتي فيما يختص بالمزايا الجذابة الكثيرة التي رأيتها في أخلاق الشعب السوري العربي :

« ١ً — كرم الضيافة عند السوريين . ان هذه المزية من مزاياهم شهيرة يضرب بها المثل وهي حقيقية ، فهم كرماء في اضافة الغرباء سواء كانوا من سكان المدن والقرى أو من عرب البادية ، وهم يقومون بالضيافة بلطف عظيم ومجاملة وطنية حميدة بين أبناء الطبقة الفقيرة ، بل الفقيرة جداً . ومن عاداتهم في الحفلات الكبيرة كالاعراس وعقد الخطوبة ان اصحاب الحفلة يدعون كل أهل القرية بمعنى الكلمة الى حفلتهم . واذا نزل في القرية ضيف أوروبي يقدم له أفضل المنازل فيها لاقامته .

« ٢ً — شغفهم باولادهم . لا يوجد قوم يولعون باولادهم اكثر من السوريين وحيث يكون التعليم متيسراً لهم تراهم جميعاً مهتمين بتعليم أولادهم . والأولاد السوريون كثيرو النباهة والجاذبية ومحبوبون وتجدر المقارنة بينهم وبين أبناء أي شعب من الشعوب الراقية .

« ٣ً — قابليتهم للتعليم . يسرك ان تسمع الصبيان والبنات السوريين يتلون فصولا طويلة من الكتاب غيباً فان لهم ذاكرة بديعة .

« ٤ً — السوريون شعب متدين بفطرته ومن كان لا ينتمي

الى دين من الاديان ينظر اليه عنـدهم كمخلوق غريب • وهم يعتقدون بالكتب الالهية المنزلة — القرآن والتوراة •

« ٥ً — ابناء العرب لهم لغـة واسعة الآداب جميـلة البيان لذيذة الشعر ولهم امثـال لا تفوقها امثال في أية لغـة اخرى • واللغة العربية عظيمة الفصاحة والتعبير والقوم مولعون بها جداً •

« ٦ً — اقتبس السوريون روح النشاط والعمل من المدنيـة الغربية وهم يقومون الآن بمهاجرة فينيقية جـديدة فيذهبون الى اقصى اطراف الارض طلباً لتحسين احوالهم وسوف يعود منهم في المستقبل الفريق الاكثر صلابة والاوفر ثقة وكفاءة لينفعوا بلادهم ويرفعوا شأنها •

« ٧ً — كثير من رجالهم المتعلـين ممن تربوا فى مـدارس المرسلين وكلياتهم يشغلون الآن مراكز عالية في الهيئة الاجتماعية بين محررين في الصحف وكتاب ومديرين في دوائر الاعمال واطباء ووعاظ ومعلمين في كل انحاء هذه السلطنة (العثمانية) وفي مصر وشمالي افريقيا • »

** وقال اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » (مجلد ٢ — ص ٢١٧) ما يأتي :

« ان السوري من الوجهة الادبية او الاجتماعية او العقليـة يحل محلاً عالياً لا ريب فيه . ويندر ان يكون مرتشياً • توجد في الهيئة الاجتماعية السورية درجات كثيرة . فالسوري الذي من الدرجة الراقية هو رجل مستكمـل صفات الرجولية النبيـلة وآدابه

وسلوكه بصفة عامة تدعو الى معاملته كمعاملة الاوروبي الذي من الطبقة الراقية على قاعدة المساواة الاجتماعية التامة بينهما فهو يستطيع ان يفعل ما يفعله الاوروبي ويفهم لماذا فعل الاوروبي ما فعله وهو قادر على البحث بدقة فيما اذا كان العمل قد عمل بحكمة او بغير حكمة . ولا ينقصه شيء من القوة المنطقية مطلقاً . وبالاختصار ان من الخطأ ان يقال انه يقلد المدنية تقليداً - ويمكن ان يقال بحق وصدق انه متمدن تمدناً حقيقياً . »

** نشرت جريدة المقطم في عددها الصادر في اول يونيو سنة ١٩١٨ مقالة عن حركة السوريين المهاجرين فيما يختص بالحرب تشتمل على الخبر الآتي منقولاً عن الصحف الاميركية وفيه دلالة على حمية السوريين وهمتهم ونشاطهم :

« مما يدل على حمية السوريين في الولايات المتحدة ان ثلاثة من العمال اللبنانيين في دار صناعة فوررفر في كوندي بولاية مستشوستس حازوا السبق على خمسة عشر الف عامل يعملون في هذه الدار بغرزهم اكبر عدد من المسامير الضخمة المحماة في دروع باخرة تبنى جديداً ، فقد غرزوا في اول مايو الماضي ٢٨٠٥ مسامير في تسع ساعات فكان ذلك اكبر عدد عرف في تاريخ بناء البواخر الى ذلك اليوم وقد كافأت الحكومة الاميركية هؤلاء العمال بالجائزة المعينة لذلك ، ومنحتهم هبة أخرى علاوة عليها لما علمت أنهم غرباء من لبنان . واسم رئيس هذه الفرقة خليل ملحم . »

٤

مسألة الطوائف والمذاهب

اذا ذكرت مسألة اختلاف المذاهب وجب ان يقال ان جميع المستنيرين بنور المدنية العصرية من أهل سورية يعرفون ان الدسائس السياسية هي التي حركت المنازعات الدينية بين مختلف العناصر في بلادهم والجميع مهتمون بازالة تلك الفروق والفواصل الوهمية التي وقفت دهراً طويلاً في طريقهم تعيق سير قوميتهم في سبيل التقدم تحت سلطة حكام مفتونين بالاغراض •

ولكن نور المدنية الذي شح قروناً في جهات معينة في سورية وخبا في جهات أخرى، أشرق الآن اشراقا ساطعاً في كل أرجاء البلاد • ومن البله ان يقال بعد ان رأى الكون هذا المعترك الدولي العظيم الذي وقف فيه فرع السلالة النبوية في صف المسيحيين يبارز الخليفة من أجل حق يطلبه، والذي اتحد فيه البوذي والبروتستانتي على اهلاك بروتستانت آخرين، والذي قاتل فيه زنجي أواسط أفريقيا مسيحي أواسط أوروبا — من البله أن يقال بعد هذا أن للنازعات الدينية تقيم حوائل وسدوداً جديدة في طريق المدنية في سورية اذا تولت شؤونها حكومة دستورية عصرية •

لقد سئم الناس أيما سأم ذلك النظام الرسمي القديم الذي

كان يقضي بأن يسأل المرء عن دينه كما يسأل عن اسمه ومهنته في دوائر الحكومة مثل المحاكم ومكتب الجوازات وغيرها .

وهذه الروح ليست بنت اليوم بين السوريين ذوي الوطنية . بل هي روح قديمة ظهرت منذ زمن طويل قبل الحرب في سورية وخصوصاً بين الطبقات المتعلمة . وكل ما جد من هذا القبيل هو ان الانقلاب الجديد أنضج مبدأ نامياً . وحكاية تآخي الشيخ والكاهن في بيروت من الادلة على ذلك .

ومما يستحق الذكر هنا انه لما وصل جيش الجنرال اللنبي الى لبنان منقذاً تلك البلاد التي كانت قد وصلت الى منتهى درجات الضيق ، قام الاهالي يستقبلون منقذيهم بقلوب تفيض بشراً وحبوراً . وقد حضر بعضهم مأدبة أقيمت لكبار الضباط في احدى مدن الجبل فالقى أحدهم خطبة رحب فيها بالقائد وأركان حربه بعبارات تناسب المقام ، وقد لخص أهم ما يطلبه الشعب من الامور الحيوية التي تمس الحاجة اليها في أربعة مطالب . وبالرغم من سوء الحالة العامة هناك والشدة المتناهية والمصاعب الجمة التي كان الاهالي يسانون حمل اثقالها بسبب الانقلاب والمجاعة لم ينس الخطيب ان يجعل مطلب « التعليم الحر » واحداً منها وقد قال بهذا الشأن ما يأتي — نقلاً عن جريدة فلسطين الانكليزية :

« اننا بحاجة الى التعليم العام — الى التعليم الوافر الحرية الذي يوسع العقول ويشرف القلوب — ذلك التعليم الذي يجمع شتات الفرق على الرغم من اختلاف مذاهب الناس واديانهم —

ذلك التعليم الذي يعلم أحترام حقوق الغير ويعلم ان على الفرد واجبات يقوم بها كما ان له حقوقاً ينالها . »

« وقد أكثر السوريون الذين يغارون على مصالح الوطن من جميع الطوائف من ابداء مثل هذه الافكار في المدة الاخيرة . ففي ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ نشر المقطم رسالة في هذا الموضوع لمحام سوري في احدى مديريات الدلتا في القطر المصرى يصح ان ان تتخذها نموذجاً لما يقال في هذه الايام من هذا القبيل . فقد قال فيها ما يأتي :

« يحق لكل سوري ان يفكر ويعمل لما فيه سعادة الوطن واهله ولا سيما في هذه الفرصة التي قد لا تسنح مرة اخرى في اجيال عديدة مقبلة . وازيد تتقي بوطنيتكم وبانكم لا تدعون الفرصة تمر رأيت ارن الفت نظركم الى ضرورة تبادل الافكار والآراء للنظر في احسن الطرق لوضع نظام عام يضم ولايات سورية ولبنان ويكفل تأليف حكومة ثابتة ذات قوانين عادلة تضمن ترقية البلاد في الاخلاق والزراعة والمعارف والقضاء الخ وفي الدعامات التي يرتكز عليها تقدم البلاد تقدماً ثابتاً مع زوال الانقسامات والتحزبات المذهبية التي هي مرضنا القاتل . »

وجمعية الاتحاد اللبناني التي أنشئت في القاهرة في سنة ١٩٠٩ للدفاع عن حقوق لبنان ومبادئه والتي تطالب الآن باستقلال لبنان ضمن حدوده الطبيعية تبني اعمالها على أربعة قواعد أساسية — الثالثة منها هي : — « نشر روح الاخاء بين طوائف الجبل

والسعي لازالة أسباب المنازعات الدينية والاقليمية ».

ومما يسر ذكره ويقابل بالارتياح ان جميع المقاطعات السورية التي لم تنتشر فيها المحركات السياسة الخارجية يحيا فيها الاهالي حياة وفاق ووئام وقلما يكترثون باختلاف المذاهب . ففي فلسطين مثلاً لا يوجد نزاع بين المسلمين والمسيحيين أو بين المسيحيين والدروز . وقد قال أحد أعضاء أسرة عبد الوجيهة من أقليم عكا مرة لكاتب هذه السطور — « لا توجد بين الاصدقاء علائق مودة وصفاء أفضل من العلائق الموجودة بين المسيحين والمسلمين عندنا» وقال أحد أعضاء عائلة طريف الوجيهة من قضاء صفد بفلسطين : — « اننا لا نشعر بوجود ضغائن ملية في بلادنا والمسيحيون الذين نخالطهم مخالطة كثيرة في قرى عديدة — أخصها الرامية ، والمغار ، وابو سنان ، وكفر ياسيف حيث يوجد منهم كثيرون — هم على جانب عظيم من لطف المعشر ».

أما اليهود في جنوبي سورية فحالتهم تختلف اختلافاً كبيراً عما تقدم ، ذلك لان الحركة الصهيونية طالما أنكت الطوائف الاخرى بكثرة ما فيها من الدسائس السياسية الخارجية .

ثم ان المسلمين والمسيحيين في ولايتي الشام وحلب هم دائماً على أتم وفاق من الوجهة العنصرية . غير ان الحالة ليست كذلك في بيروت وبعض المدن الساحلية الاخرى من تلك الولاية وبعض أنحاء لبنان حيث يكثر فتنة الاجانب وتمتد مساعي خدمة الاغراض السياسية .

ودروز حوران لا ينظرون مطلقاً الى المسائل الطائفية ولم يكن غريباً عندهم حتى نهاية الحرب غير « الدولاني » اي موظف الدولة سواء كان تركياً او متتركاً .

لما شبت نار الحرب وقف الدروز في حوران على الحياد محجمين عن خوض غمارها مع الدولة وهم المتضجرون من حكمها فلم تغرهم مجاملات الترك الوقتيـة ولا اضعفت عزيمتهم مظاهرات الالمان وفازوا بصون مركزهم والوقوف وحدهم معتمدين على قوتهم القوميـة ومواردهم الاقتصادية الوافرة . ولما باتت المجاعـة تضغط على اهـل لبنان وفلسطين هرع ألوف من سكان ذينك الاقليمين من جميع الطوائف والمذاهب الى حوران . فاستقبل الحورانيون ضيوفهم بما اعتادوه من الكرم وحسن الوفادة . وقد اشارت جريدة المقطم الى ذلك في مقال نشرته في عـدد يوم الخميس الواقع في ٢٩ اغسطس سنة ١٩١٨ عما حل بسورية من النوب السود قالت فيه ما يأتي :

« من الاخبار التي نشرناهـا امس عن سورية ولبنان بعد مشافهة اثنـين نجوا الينـا من شهود العيان اخبـار تصدع الافئدة وتفتت الاكباد لانها تؤكد صحة كل ما وصل الينا من اخبار السوء عن سورية فابناء تلك البـلاد لا يزالون يموتون شر الميتات ، ولولا فضل الاميركيـين الذين عم العالم المتمـدن فضلهم في هـذه الايام ، ولولا فضل الدروز من اهـل حوران الذين فتحوا ابواب ديارهم لكل لاجيء اليهم على اختـلاف الطوائف والاديان لخفنا ان لا يبقى في البلاد ثلث اهلها الى

آخر هذا العام . هذه يا اهل الخير والاحسان الايام التي اعد الله لها اهل الجود والكرم وذوي الشفقة والرأفة

« فالمسلمون يموتون الان في سورية جوعاً الوفاً الوفاً والمسلمون اخوة على اختلاف الاجناس والاوطان فكيف اذا كانوا عرباً وجيراناً . والمسيحيون والاسرائيليون اسوأ حالا حتى التجأ ١٤.٠٠٠ يهودي الى دروز حوران فهل سورية يحتاجون بسبب هذه الحرب الزبون الى اعانات » الخ

ولما علمت الجالية السورية في القاهرة بما أتاه الحورانيون من الشهامة ارتأى كثير من ابناء الوطن ارسال كتاب شكر لهم وقد كلف أحد مشاهير الخطاطين هواويني بك في القاهرة بتسطير ذلك الكتاب بخطه الجميل وارسل للقوم مع رسول خاص .

واني أورد هنا لمناسبة المقام شهادة اخرى قديمة العهد في نفس الموضوع تدل على ان دروز سورية كانوا في الزمن الذي جرت فيه معركة نافارين كما هم في الاوقات الحاضرة فيما يختص بعلاقتهم مع الطوائف الاخرى في سورية . وهي مما كتبه لامرتين وهذا معربها :

« أن كرم الضيافة عندهم امر مقدس . فلا وعد ولا وعيد يحمل الدرزي على تسليم ضيف لاذ به ولو طلبه منه أميره . وحدث في زمن معركة نافارين ان الاوروبيين الذين كانوا مقيمين في مدن سورية وخافوا انتقام الترك لجأوا الى الدروز ومكثوا عندهم عدة شهور آمنين مطمئنين كل الطمأنينة . وشعارهم الادبي أن كل الناس اخوة وهذا ما يقوله الانجيل لنا غير ان

القوم يحفظونه اكثر منا . »

والمسيحيون والدروز في جبل لبنان كانوا على الدوام اخواناً بصفتهم شعباً لبنانياً وهم من هذا القبيل لا يزالون كذلك . وقد تآخى الموارنة والدروز دهراً طويلاً كما يشهد التاريخ وطالما تضافر هذان الفريقان في رفع شأن الوطن ، فكلتا الطائفتين باسلة وكلتاهما ذات اخلاق قويمة وللفريقين ابطال يشاد بذكرهم وآمال وطنية يرجو الكل تحقيقها وكلاهما يحب ربى البلاد وأرزها .

غير ان الفريق الاول منهما — ويسوءني جداً ان أقول ما أقوله لاجل الحقيقة التي تمس الحاجة الى تقريرها الآن — في « كثير » من الساسة المسخرين و« كثير » من الكهنة المتحيزين الذين يخدمون مصالح خصوصية بايقاد الضغائن الدينية ولغم بناء الوحدة الوطنية . وكهنة مواطنينا الموارنة ذوو نفوذ عظيم في طائفتهم . وهم مشهورون بحركتهم السياسية في سورية وبين الاوروبيين والاميركيين الذين يعرفون لبنان وأهله . وقد قال عنهم الدكتور جصب في كتابه (ص ١٥٨) ما يأتي :

« ان هؤلاء الاحبار الشرقيين متعجرفون ممتلئون بالفتنة السياسية ويشجعون شعبهم على ظلم الطوائف الاخرى . »

في سنة ١٩١٧ نشر سيادة الحبر السياسي المشهور المطران يوسف دريان النائب البطريركي الماروني في مصر كتاباً دعاه « نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من قديم الدهر حتى الآن » طاعن فيه الطوائف الاخرى من ابناء سورية

وخصوصاً الدروز مطاعنة شديدة . وقد كتب سيادته ذلك الكتاب ردّاً على كتاب فرنسوي نشره ندره بك المطران في باريس بعنوان « سورية الغد » باحثاً فيه في المسألة السورية وقد قال فيه بين ما سطره من حجج الكلام : « كان الدروز وهم الاقلية متحكمين بلبنان وأهله الذين تتكون منهم الاكثرية فحكمه بنو معن الى فخر الدين باسم الدروز » الخ

فلم يطق سيادته هذا التعبير السياسي فسخط وحمل على الدروز والمسلمين وغير الموارنة من المسيحيين حملة شعواء والكتاب مطبوع يستطيع كل شخص ان يراه .

وقد روت جريدة البصير الغراء في عددها الصادر في ٢ دسمبر سنة ١٩١٨ ان جناب المسيو كولوندر سكرتير الوكالة السياسية الفرنسوية في بيروت قال في خطاب ألقاه في الكاتدرائية المارونية للقديس جارجيوس في تلك المدينة بعد ختام قداس حافل أقيم فيها

« اني لا أنسى في هذا النهار المرحوم المطران بطرس شبلي ذلك الكريم الذي مات في سبيلنا »

وقد كان رؤساء الكنيسة المذكورة في الماضي ينهجون مثل هذا المنهاج في السياسة فان المرحوم المطران طوبيا قال مرة لخورشيد باشا والي سورية قبل وقوع الحرب الاهلية في لبنان « افتح عينيك فان عندي ٢٠ ألف بندقية » .

هؤلاء الاحبار الاجلاء الذين نحترمهم شخصياً كل الاحترام جعلوا من المستحيل فعلاً ان يتملك احد من غير رعيتهم من أبناء لبنان

ارضاً او يقيم مستقراً في اقليم كسروان بين الموارنة ، ولا يعترض. على هذا القول بان الناس أنفسهم لا يحبون الاختلاط بابناء الطوائف الاخرى من اخوانهم اللبنانيين فان أبناء كسروان كانوا علي الدوام يتحدون مع مواطنيهم في قضاء الشوف في الامور السياسية والاجتماعية ، وكانت تعقد بينهم روابط ومواثيق كبيرة القيمة من الوجهة الوطنية كما هو مشهور ولا يقصد بهذا المنع تجنب طائفة واحدة بل تجنب مواطنة كل من كان من غير أبناء الكنيسة نفسها كما يظهر فالاورثوذكسي او البروتستانتي في كسروان يجد نفسه كاليهودي في الحجاز ، ولا نخطيء اذا قلنا ان رؤساء الدين المشار اليهم كانوا السبب في ايجاد الخلاف المذهبي بين أبناء لبنان ولا سيما بين الموارنة والدروز .

وقد تجسم الخلاف بين هذين العنصرين أول مرة في أواخر القرن الثامن عشر عند ما طمحت فرنسا الملكية في عهد نابليون الى الحلول في الشرق الادنى ، وبلغ أشده في سنة ١٨٦٠ عند ما وقعت بين الفريقين تلك الحادثة المشئومة التي أدت الى تداخل اوروبا في الامر . وقد احتلت فرنسا القديمة أرض لبنان مدة ولكن انكلترا التي أنقذت سورية في سنة ١٨٤١ من غزوة ابراهيم باشا وأرسلت قوة بحرية الى بيروت تحت قيادة السر تشارلس نابير لذلك الغرض أقنعت الدولة الفرنسوية بوجوب جلاء جيشها عن سورية . ولما انجلي الاجانب ابتهجت طوائف البلاد جميعها بسلامة الوطن ما عدا الفرقة الاكليريكية في لبنان .

٥

الحركة القومية والقلقلة القنصلية

ان الحرية التي انبثق فجرها مع الثورة العثمانية في سنة ١٩٠٨ جاءت بنهضة حقيقية لسورية فان البلاد أفاقت من هجوعها الطويل وشرعت تستفيد من الفرصة السانحة ، وغدا الاهالي يتناسون اختلافاتهم الطائفية ويسعون لترقية مصالحهم المشتركة اجتماعياً وسياسياً . ومما يستحق التخصيص بالذكر ان محفل صنين الماسوني وهو أول محفل انشيء في لبنان مستمداً قوته ونظامه من الشرق السكوتلاندي — فعل فعلاً كبيراً في توثيق عرى الاخاء بين أبناء البلاد ضمن دائرته الخاصة ، وقد أقام عدة معارض صناعية محلية بقصد تشجيع الصناعة الاهلية ، وقام بحركة ديموقراطية في البلاد توسطت بين سياسة الاحزاب الاريستوقراطية وسياسة الاكليرس .

ثم طفقت الجمعيات الاهلية تظهر في طول البلاد وعرضها منتشرة بكثرة فيها كما ينشأ الفطر لخدمة مختلف الاغراض المحلية بين سياسية وادبية وغير ذلك . وظهرت بضع جرائد جديدة في جهات مختلفة تبشر بالنهضة الحديثة وانشئت في المدن والقرى أندية صغيرة دعيت « غرف قراءة »

وهكذا أخذت الحركة الوطنية في الانتشار والاتساع ليس في

الوطن فقط بل فيه وبين الجاليات السورية في البلدان الخارجية أيضاً ، ولا سيا في مصر والولايات المتحدة حيث انشئت جمعيات عديدة ولجان وفروع لجان بقصد ترقية شؤون الوطن والدفاع عن مصالحه العامة . وكان أكثر تلك الجمعيات ظهوراً حزب اللامركزية وحزب الاتحاد اللبناني في مصر ، وقد انشيء الاول لاجل احراز شبه استقلال اداري لسورية ولبنان . والثاني لاجل صيانة حقوق لبنان وامتيازاته .

وحيث كانت الروح الدستورية في تركيا وقتئذ لا تزال بحالة الاختمار فقد نفر الترك من الحركة السورية وخافوا ان تمتد الروح الجديدة الناشئة فيها الى بقية أنحاء السلطنة العثمانية قبل ان تتوطد اركان الادارة الجديدة في الاستانة . لذلك طفقوا يحاربون تلك النهضة بطرق خصوصية مستغربة . وقد رضوا بمنح لبنان بعض « امتيازات جديدة » وعرضوا الوظائف العالية على بعض اعضاء حزب اللامركزية وعينوا عندهم وزيراً لبنانياً وعضواً سورياً في مجلس الاعيان وارسلوا عدة حكام من أبناء العرب الى سورية منهم وال لولاية دمشق الشام الكبيرة ووعدوا بان يغدقوا جم المكارم على البلاد . وفي الوقت نفسه طفق كتاب الترك يحاربون اللامركزيين ومن عضد سياستهم .

أما الجمعيات السورية التي نشأت في أميركا فكانت همها تنصرف بالاكثر لترقية شؤون المهاجرين ولكنها ، على بعدها من الوطن وعدم تمكنها من احداث تأثير فعلي في سياسة البلاد ،

خدمت سورية خدماً جليلة من وجوه عديدة • وربما كان بعضها في الاحوال الحاضرة أكثر نفعاً للوطن وأجل خدمة لقضيتنا القومية العامة من كثير من جمعياتنا البلدية •

وبينما كان كل شيء جارياً مجرى حسناً يلائم مصلحة الشعب ورغائب البلاد كان فئة الحزب الاكليريكي يفرغون جهدهم في اجراء ما يطيب لهم اجراؤه مما يخالف تلك المصلحة ويضاد تلك الرغائب وبعبارة اخرى اجراء ما من شأنه ان يفضي الى تقويض هذا البناء الوطني العام . واضطر وكلاء السياسة الخارجية ان يزيدوا قوة عملهم لمجاراة سير الحركة • على ان روح الوطنية في الشعب قاومت التجاريب الشديدة ودلت على أنها ، وهي طبيعية صحيحة فيه ، أقوى من ان تبددها الاوهام وتخمدها مظاهر النفوذ والمحامد الاصطناعية • غير ان البلاد قاست مغارم كثيرة تحت هـذا العبء الثقيل •

تقدم أن بيروت كانت مركز الحركة الاجنبية في سورية وكانت سهام الاغراض تسدد الى ذلك الجبل الخطير ، لبنان ، حيث كان كهنة الموارنة الاجلاء على استعداد دائم لقبول أية نجدة سياسية تأتي من الخارج • وهذه حقيقة يجب الاعتراف بها وهي معروفة في الشرق الادنى وبين الاجانب الذين تهمهم أمور هذا الشرق فلا تحتاج الى برهان • ومع ذلك فقد يطيب لقراء هذه الرسالة ان يقرأوا الجملة الآتية منقولة عن رسالة افرنجية كتبها أحد وجهاء السوريين يعرض فيها احوال سورية قبل الحرب

فهي جديرة بالملاحظة قال الكاتب :

« ان نفوذ الاكليرس الماروني قــل كثيراً بسبب انتشار العلم بين ابناء تلك الطائفة ولـكن في المدة التي نذكرها رأينا الفرنسويين وهم أضداد الكهنوت في بلادهم ، يحيون قوة الاكليرس السياسية في جبل لبنان ويشجعون فكرة النظر الى غبطة البطريرك الماروني كامير البلاد الصاحب الشأن . وقد زاره في السنوات الاخــيرة جنــاب المسيو دفرانس المعتمد السياسي الفرنسوي في القاهرة (سابقاً) والمسيو كايو من رؤساء الوزارة السابقين في باريس وبعض أمراء البحر الفرنسويين . وحدث مرة ان غبطته زار أسطولا فرنسوياً فاستقبله ضباط الاسطول وجنوده استقبالاً عظيماً وحيوه باطلاق المدافع تحية ملوكية . »

وكان من نتايج تداخل الاجانب في شؤون لبنان ، وضعف الحكومة العثمانية ، ان عناصر سكان الجبل وبعض الاقاليم الاخرى من سورية — ولا سيا السواحل — عقدت عقود مودة سياسية مع قنصليات الدول العظمى الضامنـة امتيازات لبنان وبالاخص فرنسا وانكلترا وروسيا وعملاً بهذه العادة كانت فرنسا ترعى الموارنة وانكلترا ترعى الدروز وروسيا الروم الارثوذكس .

وحيث كانت مصالح الاهالي كثيرة الاحتكاك ببعضها وكان الاهالي انفسهم علي جانب عظيم من الحركة والذكاء فقد أوجدوا للقنصليات المذكورة شغلاً كبيراً لا تعرفه القنصليات عادة في بلدان أخرى ، ذلك ان الموارنة كانوا كلما شاءوا نيل امتياز خاص

أو خدمة غرض معين أو ادراك غاية من الغايات مما يتعلق بالحكومة في لبنان و بيروت وغيرها ، يذهبون — افراداً او احزاباً — الى القنصل الفرنسوي و يستدرجونه الى العمل لمصلحتهم ، وكان كل فريق من الدروز والارثوذكس يهرع كذلك الى « قنصليته » لمثل تلك الاغراض .

وقد اشتدت هذه القلقلة القنصليـة في السنوات الاخـيرة ، قبل الحرب ، الى درجة لم يسبق لها مثيل ، وتعقدت بسبب ذلك أمور كثيرة وبلغت المشكلة حداً قل عنده اصطبار الناس من الوجهة السياسية حتى بات الكل يتساءلون ماذا عسى ان يكون بعد كل هذا . وقد جاءت الحرب . وها نحن كما نرى .

القسم الثاني

١

بلاغ من الحكومتين البريطانية والفرنسوية

في يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ أصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسوية متفقتين البلاغ الآتي بنصه الرسمي :

« أن الغرض الذي ترمي اليه فرنسا وبريطانيا »
« العظمى بمواصلتهما في الشرق تلك الحرب التي »
« أثارها الطمع الالماني هو تحرير الشعوب التي »
« طالما ظلمها الترك تحريراً نهائياً ،وتأسيس »
« حكومات ومصالح أهلية تبني سلطتها على »
« اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً »
« وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم . وتنفيذاً لهذه »

« النيات قدوقع الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس »
« حكومات ومصالح اهلية في سورية والعراق »
« اللتين أتم الحلفاء تحريرهما وفي البلاد التي »
« يواصلون العمل لتحريرها وعلى مساعدة هذه »
« الهيئات والاعتراف بها عند تأسيسها فعلا . »
« والحلفاء بعيدون عن ان يرغموا سكان هذه »
« الجهات على قبول نظام معين من النظامات »
« وانما همهم ان يحققوا بعونهم ومساعدتهم النافعة »
« حركة الحكومات والمصالح التي ينشئها الاهالي »
« لانفسهم مختارين حركة منتظمة وان يضمنوا »
« لهم قضاء عادلا واحداً للجميع وان يسهلوا »
« انتشار العلم في البلاد وتقدمها اقتصاديا وذلك »
« بتحريك همم الاهالي وتشجيعها وان يزيلوا الخلاف »
« والتفرق الذي طالما استخدمته السياسة التركية »
« ذلك هو ما اخذت الحكومتان الحليفتان على »
« نفسيهما مسئولية القيام به في البلاد المحررة »

هذا تصريح جليل تلقاه جميع السوريين بالامتنان والارتياح لانه يوضح باجلى بيان ان هذا الشعب منح حق تقرير مصيره اعترافاً بما له من الحقوق القومية وبما له من الاستحقاق والمزايا

الشعبية . وعملاً بالمبادئ الديموقراطية الجديدة الآخذة في النمو والانتشار في جميع أقطار العالم . فان بلادهم « حررت تحريراً نهائياً تاماً » وهي ستكون لها « حكومة أهلية تبني سلطتها على اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً » . ويصرح محرروها ذوو المقاصد النبيلة انهم « بعيدون عن ان يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من النظامات » »

ولكن هذا البيان الرسمي كثير الايجاز والتحفظ فلا يشبع فهم السوري فيما يختص بمستقبل وطنه ، ومن يقرأه تجول في خاطره مئة سؤال وسؤال ، وأهم ما يستوجب الايضاح من الامر النقط الآتية :

١ً — أي الصلات توجد بين الحجاز وسورية فان راية الشريف المعظم نشرت في هذه البلاد منذ أول اكتوبر سنة ١٩١٨ ؟

٢ً — من يشرف على البلاد التي حررها جيش الجنرال اللنبي من حكم الترك الى ان تستجمع قواها وتقف وحدها ؟

٣ — كيف ومتى تختار سورية نوع الحكم الذي يناسبها ؟

وقد نشرت جريدة الاهرام الغراء مقالا صائباً في هذا الموضوع قالت فيه ما يأتي :

« لا نخطيء اذا نحن قلنا ان كل سوري وعربي صرف

زمناً طويلاً في تلاوة « الاعلان الرسمي » الذي نشر باسم الحكومتين البريطانية والفرنسوية عن مصير سورية والعراق » ولقد قلبوا الالفاظ والعبارات . بل استنطقوا الحرف والشكل لتتجلي لهم الحقيقة ويعرفوا كل المعرفة روح البيان ومرماه ومغزاه .

« ولقد ورد في البيان اسم سورية والعراق ولم يرد اسم فلسطين ولبنان فقال الفلسطينيون ان البلاغ لا يتناولنا لان لنا حالة خاصة بسطت مراراً . وقال اللبنانيون مثل قولهم لان لهم حالة دولية خاصة . ولان لهم حكومة منظمة على قاعدة ديموقراطية اذا احتاجت الى الاصلاح لا تحتاج الى الاساس الذي تبنى عليه .

« أما العراقيون والسوريون فيرون ان فرنسا وانكلترا برتا بوعدهما في تحريرهم من ربقة الترك . وبرتا بوعدهما في انهما قدمتا للشعب حرية اختيار شكل الحكم والادارة في بلادهم . وكل ما اختلفوا فيه هو وقت الاختيار وطريقته . وآراؤهم جميعاً متفقة على ان الحليفتين بعد هذا الاعلان ستطلقان الحرية لاهل البلاد في البحث والمناقشة وعقد الاجتماعات السياسية لتمحيص الامور واختيار الافضل لهم لانه اذا كان كابوس الحرب قد زال الآن فان أثره لم يزل . فمن الواجب التروي . ومن الواجب امهال تلك البلاد حتى تستفيق من سباتها بل من الغيبوبة التي أصابتها عقيب الضربات التركية على رأسها . فالجائع من تلك الامة لا يفكر الآن الا بان يشبع . والمديون الا بان يدبر شؤونه . والمنفي الا بان يعود الى أهله ووطنه . والخائف بغير التأمين .

والتدبر العاقل الرزين يتوق الى معرفة تطور العالم كله .

« أضف الى ما تقدم أن شطراً من عقل سورية ومن نفسها وروحها بعيد الآن عن سورية والعراق ولا مندوحة لامة تضع اليوم أساس مستقبلها من ان تجمع كل قواها وعقولها وأفكارها في وضع ذلك الاساس حتى يكون قوياً لا تزعزعه الرياح بل العواصف . ولا تدركه الصواعق والنوازل .

« والدولتان الحليفتان الجليلتان تعرفان ذلك كما تعرفان ان من السوريين نصف مليون ، أي نحو الربع ، في المهاجر . وان لهذا الربع حق الاختيار والقول اما كتابةً واما قولاً ولنا الامل الوطيد بان لا يحرم هذا الربع من ابداء رأيه ، وابداء هذا الرأي وتمحيصه لا يتسنى الآن لانقطاع المواصلات انقطاعاً لا يمكن البعيد عن سورية من العودة اليها .

فهذه الاعتبارات جميعاً يكررها الجميع ويثقون ان الدولتين الحليفتين تنظران اليها قبلهم وتنزلانها منزلة الاعتبار . »

نشر البلاغ المتقدم ولم يعد ينشر بعده شيء رسمي عن مستقبل سورية . غير ان الجنرال السر أدموند اللنبي محرر البلاد لما عاد إلى مصر رسمياً بعد الانتصار ألقى خطبتين خصوصيتين احداها في حفلة أقامتها له الجالية السورية في النادي السوري في القاهرة والاخرى في حفلة مثلها أقامها له السوريون في ناديهم بالاسكندرية ، تتضمنان كلاماً يريح البال كثيراً ، وقد تلقى السوريون ذلك الكلام بمزيد السرور والاغتباط .

ففي المأدبة الاولى التي أقيمت في نادي القاهرة في أول نوفمبر سنة ١٩١٨ ألقى السياسي الخبير العلامة الدكتور فارس نمر أحد أصحاب المقطم خطبة وطنية جليلة رحب فيها بالجنرال اللنبي وقدم له بالنيابة عن السوريين واجب الحمد والشكر على انقاذ الديار السورية .

فاجاب القائد الكبير على تلك الخطبة بكلام رقيق قال فيه ما مؤداه : — « ان الغرض من المحاربة في هذه الحرب العظمى هو تأييد العدل وتحرير الامم الصغيرة المظلومة . فهذا الغرض قد ادرك الآن . ولا أشك في أن مؤتمر الصلح سيمكن السوريين من استخدام كل الوسائل اللازمة لانجاح و يمنحهم حرية تقرير مستقبل بلادهم . »

وفي حفلة نادي الاسكندرية خطب الوجيه اسعد افندي مفرج مرحباً بالجنرال بلسان السوريين ، وذكر في خطابه الجملة اللطيفة الآتية :

« يا محرر سورية ! انك لست في هذه الليلة ضيف السوريين بل أنت كما نقول بالاصطلاح العربي « صاحب البيت » وقد صار يجوز لنا من بعض الوجوه ان نعدك اول السوريين لانه اذا كانت الجنسية السورية تقوم لها قائمة فتكون أنت موجدها . »

فاجاب الجنرال اللنبي جوابا كريماً قال فيه : — « أن سورية مثل جميع الامم الاخرى لها الحق في تقرير مستقبلها وتكييف مصيرها

بكل رجاء وثقة ، وتمنى للشعب السوري كل نجاح وارتقاء والوصول الى مستقبل سعيد ٠

غير أن ظواهر الحالة في الوطن لاتنعش الآمال الوطنية فان سورية قلقة تحت مختلف الاحكام وقد بدأت اقاليمها المرتبطة بروابط الاخاء القديم تحس بالوحشة العظيمة لانفصال بعضها عن بعض ٠

ففي يوم الأحد الواقع في ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ القى المسيو كولوندر سكرتير معتمد الدولة الفرنسوية في بيروت خطبة سياسية في الكنيسة المارونية بتلك المدينة لمناسبة الاحتفال بعيد القديس جاورجيوس قال فيها مايأتي (١) :

« أن احتفال اليوم والذي كنا نحضره قبل الحرب في كل سنة نقيد فيه اليوم تذكارات روابط فرنسا مع الموارنة ٠

« أن مراكبنا و بواخرنا التي كانت تشق عرض البحر في خلال مدة الحرب كانت تحيي بدخانها الجبال اللبنانية وأما الآن فهي راسية في مرافئكم وستظل فيها الى الابد ٠ ولقد جئنا الآن لكي تثبت لكم علاقتنا الحبية التي تربطنا بكم ولاجل تحرير كم ومساعدتكم فصافحوا هذه اليد التي تصافحكم واشتغلوا كلكم في سبيل مصلحة البلاد بنزاهة واخلاص ٠

---

(١) ورد وصف الحفلة في مقالة طويلة تشتمل على هذه الخطبة ارسلها مراسل جريدة البصير في بيروت الى جريدته ونشرت في عددها الصادر في ٧ دسمبر سنة ١٩١٩ ٠

« نحن لانريد ان نفرق بين الاديان والمذاهب ، ولن نفرق مطلقاً بل اننا نريد ان نسير على طريق العدالة والاهلية ، واني لا أنسى في هذا النهار المرحوم المطران بطرس شبلي ذلك الكريم الذي مات في سبيلنا . بيد أني اؤكد لكم انه لم يمت بل انه يحيا بروحه وتذكاره بيننا وكذلك جميع الشبان الذين ماتوا في هذا السبيل فان عظامهم لترقص تحت التراب اليوم فرحاً وسروراً .

« صافحوا يد فرنسا التي تمتد اليكم اليوم ، صافحوها كلكم واعملوا معها لخير البلاد . انا لا اطلب منكم أنتم الموارنة ، هذه المصافحة فاني عالم ان يدكم في يدنا منذ اجيال وستظلان معاً الى الابد (١) .

لا ريب في ان هذا الخطاب السياسي الكنيسي يغدق الغبطة والسرور العظيم على قلب الحزب الاكليريكي المتقدم ذكره . ولكن لا ينتظر ان يكون له مثل هذا التأثير عند أبناء الطوائف الاخرى من أهل البلاد بين روم ارثوذكس وبروتستانت وسنيين ودروز ومتاولة وكل من كان لا يذهب الى الكنيسة المارونية للصلاة . وبالتالي كل مدني لا يود أن يمزج الدين بالسياسة ومن هذا الفريق الشبيبة المارونية الراقية وجميع اعضاء جمعية الاتحاد اللبناني النبيلة المقاصد .

---

(١) هنا قال المراسل : — « وهكذا ختم الاحتفال بين الهتاف والتصفيق على انغام الموسيقى المرسيليز والمارش الانكليزي والمارش الماروني . »

ان ما فاه به المسيو كولوندر من موقفه على المنبر الاكليريكي موجهاً الى الذين يقصد انه يسدي اليهم النصيحة بان « يصافحوا يد فرنسا » انما يؤيد اعتقادنا بان الساسة الكنائسيين والوطنيين المخلصين لا يلتقون في ساحة واحدة .

أما قوله وهو في الكنيسة « اننا لا نريد ان نفرق بين الاديان والمذاهب » فيذكرنا بحكاية ذلك المعلم الذي أراد ان يثقف أخلاق تلامذته بمنعهم عن « سب الدين » فقال لهم « العن دين من يسب الدين » !

* * *

ينبغي لنا الآن أن نقول كلمة في عرب الحجاز : ان أشراف مكة قادة العرب ، من السلالة الهاشمية العظيمة ، الذين وفدوا الى سورية مرتدين الاثواب العربية المسبلة لينشروا راية الحجاز الملكية فوق رأس عروس الشرق ، جاءوا — والحق يقال — طاهري الايدي نظاف القلوب تعز بهم العواطف الصادقة والطباع العربية الكريمة كما يليق باحفاد النبي محمد . ولكنهم لم يجلبوا معهم غير ذلك لروح البلاد المدنية وهيئتها الاجتماعية المنظمة وأهلها الطامحين الى الارتقاء وحالتها الاقتصادية النامية .

وليس عليهم لوم في ذلك فان سوء حكم الترك لم يفسح للحجاز أقل مجال للارتقاء وكلنا يعلم انه بينما كانت هذه الولاية تسير ثقيلة الخطى في مؤخر الولايات العثمانية جميعها كانت سورية تسير سيراً

حثيثاً في طريق المدنية المصرية متقدمة جميع تلك الولايات في الشرق الادنى ولم تكن الاستانة نفسها اسبق منها في هذا المضمار . فلا بد للحجاز من صرف نصف قرن من الزمن على الاقل حتى تصل الى الدرجة التي وصلت اليها سورية من هذا القبيل . لانه ما دام شعارنا « الى الامام على الدوام » فلا نحن نستطيع ان نقف الى ان يصير في استطاعة الحجاز مجاراتنا في السير ولا ان نرجع القهقرى لنلتقي في ميدان واحد .

ونحن في الحالة الحاضرة بعد انفصالنا عن تركيا — مع تقدمنا — لا بد لنا من معين يشد ازرنا مدة من الزمن قبل أن نستطيع ان نزيل عللنا الاجتماعية القديمة وننظم شؤوننا على نمط جديد ونقف وحدنا كامة حرة ذات شأن بين الامم الحرة . وهذا انما نرجو الوصول اليه اذا اسعفنا الحظ بمعونة دولة خالية من الغرض لها من المقدرة والاختبار والحنكة في تربية الشعوب الديموقراطية ما يضمن لنا سهولة السير الى الامام ومواصلة الارتقاء العام .

ما سورية الا بلاد عربية ومن مصلحتها الحيوية ان ترفع شأن المدنية العربية وهي شديدة الرغبة في ذلك . ولكي تستطيع ان تفعل هذا الفعل لا بد لها من شرائع مدنية تسنها لنفسها تلائم نظام الشعب وحياته الاجتماعية العامة وتضمن ترقية مصالح البلاد مع مرور الزمن . وليس كل ما تستدعيه حالتنا من النظامات يفيد الحجاز واهلها فان الشعب في تلك البقعة المقدسة لا بد له

من مشكاة خصوصية تنير سبيله • وقد رأينا في الصيف الماضي (صيف ١٩١٨) ان الحكومة الحجازية الجديدة رأت من العدل والواجب ان تحكم على اعرابي من ينبع بقطع احدى يديه واحدى رجليه لانه نقب حائط السجن وهرب منه وشجع ثلاثة آخرين على الهرب أيضاً ، وقد بني هذا الحكم على مادة في الشرع الشريف توجب توقيع مثل هذا القصاص على « من يسعى في الارض فساداً » ونشر في « القبلة » جريدة الحجاز الشبيه بالرسمية (١)

---

(١) اليك ما نشرته جريدة القبلة عن الحكم المتقدم في عددها الصادر في يوم الخميس الواقع في ٢٧ شعبان سنة ١٣٣٦ :

« حبس شخص من اهالي ينبع في حقوق مدة ثلاثة ايام في الاسبوع الماضي • وفي ليلة الاثنين تسلق جدران المحبس العمومي وفجر قسما من سطحه واستخرج ثلاثة من المحابيس • واحس به الحرس فجرى القبض عليه فوراً وفي صباحها اجرى عليه الدرجة الثالثة من حد الذين يسعون في الارض فساداً بقطع احدى يديه ورجليه • واما الآخرون الذين فروا فطلبوا وقبض على احدهم • وبما ان هذا اول حد اقيم على الذين يسعون في الارض فساداً فقد ابتهج الناس واستبشروا بما وراء تنفيذه من الصلاح العام ، وارتداع ذوي الآثام • وتلك هي حكمة الشرع في جعل العقوبة البتة على امثال هؤلاء المجرمين صيانة للمصلحة العمومية من ان يهددوها باندفاعهم نحو السيئات وتطميناً لمحبي الامن والعافية من ان يزعجوهم بجرأتهم على المنكرات فضلا عما ورد في السنة السنية من تبشير مقيمي الحدود بالتوفيق والتأييد والنصر والتسديد » .

التي قالت ان الجمهور تلقى هـذا الحكم بمزيد الارتياح لانه يرى منه رادعاً عن الشر وفيه صيانة للامن العام في البلاد •

ان مثل هذا القصاص لا يخطر على بال هيئة حاكمة في سورية ولا يقبل التصور ايقاعه على مذنب سوري حتى في أشد المقاطعات الريفية خشونة في تلك البلاد • وهكذا نجد ان ما قد يرى من القوانين لازماً في الحجاز يرى غير طبيعي في سورية •

غير اننا من جهة أخرى نرى حقاً علينا الاعتراف بما للشريف المعظم وأنجاله الغر الصناديد من الفضل في الاشتراك بتحرير سورية من حكم الترك • فان الجيش العربي تحت قيادة ذلك البطل النبيل الامير فيصل كان الجناح الايمن لجيش الجنرال اللنبي المتصر من العقبة فصاعداً • وقد شهد قواد الحلفاء بما قام به من جليل الاعمال من الوجهة العسكرية الحربية في سبيل ادراك الغاية والوصول الى الغرض العام •

ثم انه يجب ان نعترف أيضاً بان الصلات التي بين دمشق عاصمة الامويين الفيحاء ومكة المكرمة دار الكعبة الشريفة ومقر ارفع بيت عربي ثار على الترك في ١٨ يونيو سنة ١٩١٦ — هي أهم من ان تقتصر على المجاملات الودية • ومع ذلك فاذا أريد رفع شأن المدنية العربية في هذا العصر الجديد بحيث يسترجع الجنس العربي مجده الاثيل في الشرق الادنى فيجب ان يكون المعول في ذلك على سورية المدنية •

* * *

توجد شوكة أخرى في جنب سورية تؤلمها . أعني المسألة الصهيونية ، أو الوطن القومي لليهود . فان جميع أبناء الوطن يخشون ان يتسع نطاق الصهيونية في سورية وتشتد مطامع الصهيونيين حتى تغشي أرض جنوبي سورية كلها فيصيب أبناء تلك الاقاليم من الضيم والضرر ما لا يقدر .

لم يحس الناس في الاحوال الحاضرة بشيء من هذا الضيم حتى الآن ولكن ضغط الصهيونية لا يظهر في مثل هذا الوقت القصير ، ولا ندري ماذا يكون شأن السوريين مع العبرانيين في مستقبل الزمن ، غير اننا نرى ان المسألة في غاية الخطورة فان الوطن العام لا يكون وطناً خاصاً بالمعنى الذي يقصده بنو اسرائيل .

٢

سورية وفرنسا

لا ريب في انه يوجد نوع من سوء التفاهم بين فرنسا وسورية تجب ازالته .

فرنسا بلاد عظيمة ذات مواهب عجيبة ، تتمتع بشهرة واسعة ، ولها مزايا اجتماعية عالية تجتذب اليها أميال الامم ، لغتها فصيحة عذبة البيان ، ومواردها القومية غزيرة لا تنضب ، وطالما اتخذت الشعوب من ثالوث مبادئها الحرة مشكاة لانارة سبلها في الحياة . فكم أمة حذت حذو فرنسا في رفع شأن قوميتها معتصمة بتلك المبادىء الجليلة — الحرية ، والاخاء ، والمساواة — وكم شعب نسخ صورة ثورتها العظيمة التي حطمت فيها قيود الاستبداد سنة ١٧٨٩ . ان مبادىء فرنسا النبيلة مسجلة في كل مكان وبصيغ مختلفة حتى ان المرء ليراها امام عينيه أنى كان واين اتجه .

ذهبت مؤخراً الى قنصلية فرنسا في الاسكندرية ولم اكد الج باب دارها وأسير خطوتين في الممر الداخلي حتى لفتت نظري رقعة كبيرة معلقة على الحائط طبعت عليها عشرة مبادىء المانية يقابلها مثل هذا العدد من المبادىء الفرنسوية فنسخت منها ما يأتي معربه :

« مبادىء المانية »	« مبادىء فرنسوية »
الامم الصغيرة لا حق لها في الوجود السياسي لانها لا تملك القوة التي هي العنصر الحيوي للحكم • فهي لذلك ليست بذات حق •— « تريتشكي »	ان جميع الامم كبيرة او صغيرة لها حق في الوجود على حد سوى •
ان عقود الاتفاق ليس فيها الزام للدول •— « تريتشكي »	ان احترام المعاهدات هو اساس الاتفاق بين الدول •
الضرورة شريعة •— « كولهر »	
الحرية الفردية ليست حقاً من الحقوق •— « لاباند »	الحرية الفردية هي حق حقيقي•

ومن البين ان هذه المقابلة المؤثرة وضعت في اثناء الحرب أيام كان الحق لا يزال يصارع القوة الصماء . وأيام كانت المبادىء الانسانية الشريفة تفيض على العالم فيضاناً من جميع بلدان الحلفاء وتصل الى اقاصي الارض جارية في أنهر الصحف السيارة في كل مكان ، وفيوض هذه المبادىء الشريفة أيقظت كل قوم وحثت كل شعب على النهوض والاستفادة من هذا التطور السياسي العام والتغير الفكري الذي شمل الكون بأسره •

لقد باد المبدأ القديم « الحق للقوة » وتبرأت منه كل دولة وقفت في جانب الانسانية الحرة تناضل القوة العسكرية الالمانية

التي كانت تحاول خنق الامم الصغيرة واصبح المبدأ الراقي « الحق يعلو ولا يعلى عليه . »

ان سورية هي احدى البلدان العديدة التي انقذها الحلفاء واعانوها على الخروج من تحت نير احكام الاستبداد الاجنبية الى نور الحرية . وقد تولى النظر في أمرها كل من بريطانيا العظمى وفرنسا من الحلفاء ونحن نحمد كلتيهما على هذا الفضل الكبير .

قيل لنا في مقال شبيه بالرسمي نشر حديثاً في الصحف المصرية عن الادارة الموقتة في سورية ، ان هذه الادارة لم تخصص بدولة او حكومة معينة بل جعلت « دولية » « أنتر ناشونال » أي عهدوا بها الى موظفين يمثلون حكومات مختلفة . وقد جاء في ذلك المقال ما معربه :

« مما يحسن ذكره ايضاحاً للصفة الدولية البحتة التي جعلت لادارة الجنرال اللنبي لسورية هو ان ادارة فلسطين عهد بها الى جنرال انكليزي ، وادارة القسم الشمالي من أراضي الاعداء المحتلة الى ضابط فرنسوي هو الكولونل دي بيباب ، وادارة القسم الشرقي من الاراضي المذكورة الى حاكم عربي هو علي باشا الركابي . »

وهذا معناه بعبارة واضحة ان محرر سورية الذي يدير شؤون البلاد الآن بالنيابة عن الحلفاء ، يريد عملاً بما له من السلطة ان يعطي البلاد فرصة حقيقية لاختيار نوع الحكم الذي يلائمها . وفقاً للمقاصد النبيلة التي ينطوي عليها بلاغ نوفمبر الماضي . ولكن

الجمعية التي تدعو نفسها « اللجنة السورية المركزية » في باريس وغرفة التجارة الفرنسوية في مرسيليا ، والحزب الاكليريكي في الوطن ، وجماعة من وكلاء السياسة في الشرق — هؤلاء الناس ومن نهج نهجهم قبلهم ، يقولون لحكومة الجمهورية الفرنسوية الحرة ان سورية تلتمس تداخل فرنسا في أمرها ، والوكلاء الذين سمعناهم يتكلمون عن « اخلاص » سورية لفرنسا ، في مصر وفي اوروبا ، كانوا يصدقون كل ما يسمعونه من أقوال « الاصدقاء المخلصين » عن تلك الديار مع ان المسألة مجسمة كثيراً في الحقيقة •

في السنة الماضية سمعنا بعض وكلاء السياسة يخطبون في هذا الموضوع ويعرضون بجمعية الاتحاد اللبناني — وهي احدى جمعياتنا الوطنية الحرة التي تخدم مصالح لبنان — قائلين انها جمعية « سفسطة » وذلك لانهم كانوا يظنون استنتاجاً مما يسمعونه عنها انها عبارة عن كمية مهملة •

ان السياسيين الذين يقاومون مصالح الوطن الحقيقية كتبوا كثيراً من فصيح البيان عن الاتحاد الشعري بين فرنسا وسورية ولكن سورية ، معظمها ، لا علم لها بتلك الحركة البيانية الخارجية • وهذا كله من شأنه ان يزيد سوء التفاهم •

وحقيقة الحال التي لا مراء فيها هي ان الجمعية المسماة « اللجنة السورية المركزية » في باريس لا تمثل غير أعضائها وهؤلاء هم سوريون بالاسم فقط • فان المسيو شكري غانم رئيس تلك الجمعية خرج من سورية صغيراً وقد نسي كل شيء عن

الهيئة الاجتماعية السورية فهو لا يدرك صفاتها المحسوسة . واكثر الاعضاء الآخرين سوريون من مصر ومنهم من لم يذهب الى سورية في حياته .

والواقع ان معظم سكان سورية — أهل الشام وحلب وحوران وبيروت وجنوبي لبنان وأقليم القدس الشريف — لم يخطر لهم ببال ان يتخذوا منهجاً سياسياً كالمنهج الذي تصوره اللجنة السورية المركزية في باريس تصويراً مجسماً . وحيث كانت للاهالي جميعاً آمال وطنية كبيرة وأماني قومية عامة فلا فائدة من تحويل المياه عن مجاريها الطبيعية .

هل تدري الديموقراطية الفرنسوية العظيمة ما يجري باسمها في بيروت ولبنان من المعاملة الاستعمارية الغير المستحبة .

هل تدري الديموقراطية الفرنسوية ان أول ما فعله مجلس ادارة جبل لبنان عملاً باشارة الادارة العسكرية الموقتة انه القى على عاتق لبنان اول حمل مالي وضع عليه منذ أجيال بصفة قرض فرنسوي ؟

هل تدري الديموقراطية الفرنسوية ان اعضاء مجلس الادارة المذكور — الذين زيدت مرتباتهم عند اجراء الترتيبات الاولى في بدء عهد الاحتلال العسكري الموقت من ٢٠ ليرة عثمانية الى ٥٠ جنيهاً مصرياً — لم يروا بداً من ان يصدروا قراراً مدهشاً فيما يختص بمستقبل لبنان بدون ان تعطى لهم أقل سلطة من الشعب

للاقدام على أمر خطير كالذي قرروه (١)

هل تدري تلك الديموقراطية ان أبناء سورية الذين طلب منهم رسمياً ان يبسطوا آراءهم فيما يختص بمستقبل بلادهم لا يزالون

---

(١) ان هذا التصرف من جهة مجلس ادارة الجبل اطاق السنة اللبنانيين في كل مكان بمر الانتقاد، وقد كتبت جريدة « الامة »، وهي لسان حال جمعية الاتحاد اللبناني بالاسكندرية، مقالة في هذا الموضوع في عدديها ٢٢٠ و٢١١ قالت فيها ما يأتي :

كنا نلتمس الاعذار لابناء البلاد (الموظفين) قبل اليوم اذا خضعوا لقوة تركيا الجائرة ولارادتها الغاشمة. اما الان فليس لهم من العذر شيء اذا اقدموا على اختراق حرمة النظام الاساسي للبنان وغض الطرف عن قوانينه وامتيازه المعروف رسمياً لدى الدول الكبرى .

تكتب هذا الى اعضاء مجلس الادارة الذي يمثل حكومة لبنان اليوم بحق الانتخاب السابق لغرض معين هو الاشراف على مصالح البلاد طبقاً للمادة الثانية من نظام لبنان الاساسي القائلة بان « يكلف المجلس الاداري بتوزيع الاموال الاميرية وبمراقبة ادارة الداخل والخارج وباعطاء رأيه الشوري في المسائل الادارية التي يطرحها عليه الحاكم . »

« فان اعضاء المجلس اليوم هم الذين انتخبهم الاهالي قبل الحرب ثم جاءت الحرب بويلاتها واعتدى الاتراك على امتيازات لبنان فعطلوا المجلس حتى اذا احتلت جيوش الحلفاء الظافرة تلك الاصقاع دعي الاعضاء القدماء انفسهم لاتمام مدة انتخابهم طبقاً للغرض الذي انتخبوا لاجله وهو محصور في الامور اللبنانية الادارية ولكننا لم نشعر الا بخروج المجلس عن الدائرة المرسومة له وتعرضه بلا حق لشؤون ليست من اختصاصه . »

غير قادرين على تبادل الآراء في هذا الامر الحيوي الخطير مع اخوانهم المقيمين في مصر وغيرها من البلدان الخارجية . مع ان الفرقة الشاذة في السياسة الوطنية تركت لها الحرية التامة لتكييف « مطالب البلاد » كما تشاء والسعي لادراك الغاية التي ترمي اليها

وبعد ان انتقدت الجريدة مواد قرار الادارة « السياسي » انتقاداً شديداً قالت :

« اكتفى مجلس الادارة بقوله وفعله ولم يعر ابناء البلاد اهتمامه ولا أخذ رأيهم ولا دعاهم الى مشاركته بالعمل وهو يدرك ان الحكم في لبنان شوروي وانه اذا لم يكن كذلك في الماضي فلان اليد التركية كانت تتلاعب به وبحكامه ، فان « التصريح المعظم الشأن » الذي نشرته بريطانيا العظمى وفرنسا الحرة لا يترك مجالا لفئة من الفئات فتتصرف بحقوق المجموع كما شاءت وشاء لها الهوى ».

وكتبت جريدة المقطم الراقيــة مقالة شديدة اللهجة في هــذا الموضوع ذكرت فيها مجلس الادارة بالقوانين والنظامات النيـابية التي يجب على كل مجلس منتخب اتباعهـا . وقــد قالت في عرض الكلام ما يأتي :

« في العالم قاعدة نيابية شهيرة يظهر ان مجلس الادارة اغفلهـا اغفالا تاماً عن حسن نية طبعاً اذ لا يصح ان يقال ان اغفالها كان للجهل بها وهي ان المجالس النيابية لا يحق لها ان تتولى غير الامور التي فوضت اليها في بيان انتخابها او التي هي من حقوقهـا بمقتضى دستور بلادهـا وحسبنا ان نشير الى ما جرى في بريطانيا العظمى اخيراً وهو القرار على انتخاب برلمان جديد يكل اليـه الشعب البريطاني حق عقد الصلح على الوجوه التي يرومها الشعب لان البرلمان الماضي لم ينتخب لهذا الغرض

سياستها بكل وسيلة ممكنة [١] (وأهم مساعيها ايفاد وفد الى اوروبا اذا نظر قضاة محكمة الامم الى اعضائه متفرسين فيهم يعلمون ما في ضمائرهم ويدركون سر حركتهم المصطنعة ٠)

وبريطانيا ام البرلمانات والمجالس النيابية وهي معلمة العالم فيها كما لا يخفى ٠

فمجلس ادارة لبنان ليس له ما يخوله الصفة التي اختارها لنفسه لا بانتخابه في الماضي ولا بوكالة اعطيت اليه من الناخبين الآن. فقد انتخب اعضاء هذا المجلس على ما نذكر قبل الحرب في احوال غير الاحوال الحاضرة ولمهمة معروفة في ذلك الحين ٠ فهو اذاً يمثل اهل لبنان في حالة معينة ولكنه لا يمثلهم في جميع الاحوال واختصاصه الاصلي معروف معين لا يتناول ما كلف نفسه القيام به الآن ٠ »

(١) نشرت جريدة الامة مقالاً حسناً في هذا الموضوع في عددها الصادر في ١٢ يناير سنة ٩١٩ قالت فيه ما يأتي :

« وليست الفرقة الواحدة في الامة الواحدة لتقوم مقام الكل أو تنطق بلسان المجموع وليس هناك عقد — مهما تكن صبغته سياسية أم اقتصادية أم تجارية أم بيع وشراء — يصح قانوناً وعقلاً ما لم تتوافر فيه شرطان جوهريان :

الاول علم صحيح بالامر . والثاني حرية تامة مطلقة .

اذا تقرر معناهذا وهو المعروف قانوناً والمعترف به دولياً ظهر لنا ان الفئة السورية التي يعول على رأيها في « الوطن » ليست اليوم في موقف يمكنها من ابرام عقد من العقود السياسية أو من الفصل في تقرير مستقبل بلادها ولا سيما أن السواد الاكبر من المهاجرين السوريين في أنحاء العالم أحرار لا يقيدهم تقليد يؤثر باخلاصهم لوطنهم وهم ساعون بكل ما في وسعهم لاقرار مستقبل زاهر لسورية .

وقد نشرت وكالة هافاس بمصر نبأ تلغرافياً مستغرباً ورد عليها من باريس في ١٣ يناير سنة ١٩١٩ هذا معربه :

« ان المؤتمر الفرنسوي لسورية الذي عقد في مرسيليا برئاسة المسيوفرانكلين بويليون — رئيس لجنة الامور الخارجية في مجلس النواب — أتم أعماله بعد ان وافق على عدة مقترحات وطلب على وجه التخصيص ما يأتي :

١ً — تحسين طرق المواصلات •

٢ً — صيانة المصالح الفرنسوية الاستعمارية بالاشتراك مع مصالح الشعب السوري •

٣ً — اطلاق حرية استيراد المحاصيل السورية وتسهيل اصدار البضائع الى القطر السوري •

٤ً — انشاء مدرسة فرنسوية عربية ومدرسة للعلوم الاسلامية •

٥ً — تحسين التشريع التجاري السوري تبعاً لقواعد القانون الفرنسوي •

وقرر المؤتمر شكر الرهبان والراهبات الفرنسويات على صادق اخلاصهم وعلى ما انشأوه من اعمال الاعانات الطبية في آسيا الصغرى ولا سيا في سورية وفلسطين وما انفقوه على تلك الاعمال • ثم القى الدكتور الفريد خوري من اساتذة مدرسة الطب

قد يكون في منازع القوم الى الاحتفاظ ببعض التقاليد نوع من الاعتراف بالفضل ولكن هذا الاعتراف على سبيل جمة ولكل منها طريقة معلومة في مواضع الاقرار غير انها جماء لا يجانق ان تكون عثرة في سبيل الوطنية الحرة التي تفضل مصلحة البلاد على كل مصلحة سواها . »

الفرنسوية في بيروت خطاباً مؤثراً عما قاساه اللبنانيون أيان الحرب . »

ان مجرد عقد «مؤتمر سوري » في مرسيليا في الاحوال الحاضرة تحت رئاسة نائب من رجال السياسة الراديكاليين في فرنسا يكفي للدلالة على ان ذلك « المؤتمر » ليس الا جمعية تبحث في مشروع استعماري عظيم ، فلا يصح بوجه من الوجوه ان يدعى مؤتمراً سورياً ، وكيف يدعى كذلك وبين قراراته قرار يقضي بوجوب « صيانة مصالح فرنسا الاستعمارية » في سورية ؟ ان هذا يكشف لكل سوري صميم حقيقة مؤلمة .

ومما يلفت النظر من مقترحات ذلك « المؤتمر » اقتراح انشاء معهد للعلوم الدينية الاسلامية في سورية ، حباً بخير المسلمين في الوطن . ما أجلى تصنع حب الخير في عرض هذا الاقتراح وفي تقريره : من لنا بمبلغ اعضاء تلك الجمعية الاستعمارية ان مسلمي سورية ليسوا بحاجة الى معهد مؤتمر مرسيليا ، وربما كان مثل هذا الاقتراح مفيداً لاهالي شمالي أفريقيا .

٣

حقائق جوهرية لا بد من تفهمها

يجب على كل باحث في المسألة السورية الا يبخس سورية حقها ولا يقل من قيمة مركزها الحقيقي • فان البلاد ناضجة للاستقلال وقد أدت خدماً جليلة للمدنية الحديثة في الشرق الادنى بفضل ما اقتبسته من المعارف وأصول التربية العصرية بواسطة أميركا وانكلترا وفرنسا وايطاليا • وهي الآن تطالب بما لها من الحقوق الطبيعية . في نور الحوادث الحاضرة معتمدة على المبادىء الديموقراطية من جهة وعلى استحقاقها وكفاءتها من جهة أخرى •

« فالجمعية السورية المركزية » في باريس ، والمؤتمر السوري الافرنجي ، وغرفة التجارة في مرسيليا ، والآباء الجزويت ، وكل اعضاء الفرقة المعارضة من بعيد وقريب ، يجب ان ينظروا بعين الاعتبار الى الحقائق الآتية التي لا فائدة في سترها او انكارها :

أولا — ان سورية التي استقبلت جيش الجنرال اللنبي باسطة ذراعيها ترحيباً بالحلفاء، حررت تحريراً ولم تفتح فتحاً •

ثانياً — ان سورية هي كتف الشرق الادنى •

ثالثاً — ان الشرق الادنى هو وطن العربية ومركز الخلافة الاسلامية الشرقية الكبرى •

رابعاً — ان للاسلام حسب الواقع خلافتين في العالم ، احداهما وهي الاولى في الشرق الادنى الاسيوي ، والاخرى وهي الثانية في الغرب الاقصى الافريقي .

خامساً — ان بريطانيا العظمى هي أعظم دولة اوربية في الشرق الادنى واعظم دولة اسلامية في العالم .

سادساً — ان أميركا أقدم معلم لسورية وأكرم بلاد عرفها السوريون واحتكوا باهلها ، فيها وفي بلادهم ، منذ عشرات من السنين .

سابعاً — ان معاهد العلم الانكليزية التي يمتد نفوذها من جنوبي فلسطين الى صور ، والمعاهد الاميركية التي يمتد نفوذها من صور الى شمالي سورية ، حسب اتفاق قديم بين الارساليتين الاميركية والبريطانية في تلك الجهات ، قد وحدت مساعيها من أمد بعيد لاجل ترقية الروح الادبية العصرية في الشعب والمساعدة على اقامة النظام الاجتماعي في البلاد على قواعد مدنية متشابهة . وقد أحرزت كلتا الارساليتين فوزاً باهراً في منطقتها كما يعلم كل مطلع على أعمال اولئك المرسلين .

ثامناً — ان فرنسا هي أعظم دولة استعمارية في شمالي افريقية ، والخلافة الاسلامية الغربية في قبضة يدها .

تاسعاً — ان السلطنة العثمانية صاحبة الخلافة العربية الشرقية الكبرى لم يعد لها في الشرق العربي موطىء قدم .

عاشراً — ان أبناء العرب على اختلاف مذاهبهم ، من مسلمين

ونصارى وغيرهم ، يفرغون قصارى جهدهم الآن لانشاء حكومة عربية جديدة علي انقاض الولايات العثمانية في الشرق فان لم يمكنوا من بلوغ هذا الغرض ظلت المسألة الشرقية ، التي سببت لاوروبا متاعب جمة ومشاكل شتى منذ اجيال ، معضلة لا تقبل الحل .

ثم ان المسألة العربية نفسها مشكلة عسيرة الحل في الشرق الادنى . ان الفكرة السائدة الآن في الدوائر السورية ذات الشأن فيما يختص بمستقبل القطر السوري ، هي ان سورية يجب أن تحيا وحدها ضمن حدودها التاريخية القديمة حياة طبيعية وان يفرغ نظام الحكم فيها في قالب مجموعة من الولايات المستقلة تحت سلطة حكومة مدنية ديموقراطية عامة بمساعدة جمعية الامم .

اذن ماذا يكون شأن الخلافة العربية الشرقية العظمى وأين يكون مقرها ؟

هذا سؤال جوابه الآن في غامض علم الله . غير ان المهتمين بالامر في الدوائر الاسلامية يرجون ان يستقر « الفارس العربي » في مقر ثابت بحيث يعيش في داره ناعم البال ولا يترك شريداً فيحل فى الكون محل « اليهودي التائه » الذي عطف عليه الحلفاء فقدموا له مأوى منمناً فى فلسطين .

« فاللجنة المركزية » المشار اليها ترى والحالة هذه في نور الحقائق انه يستحيل على أي نفوذ ان يمحو تأثير التعليم الاميركي والتعليم الانكليزي من سورية كما تمحى الاشياء بعصا الساحر

ويفرض المبادىء اللاتينية على شعب غير لاتيني • وليس في وسع أحد نكران الحقائق المتقدمة •

ولا يخفى على أحد ان سورية لها بين الدول اكثر من صديقة واحدة • فان الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا وايطاليا كلهن صديقات لها ولكل منهن اصدقاء من أهلها تربطهم بها تقاليد قديمة والبلاد تقر بفضل كل من يعطف عليها وكل صديق يعينها على ترقية شؤونها حباً بمصلحتها لا بمصلحته[1]

---

(١) قد يطيب « للجنة المركزية السورية » ان تقرأ الجملة الآتية من مقالة نشرتها جريدة البصير السورية في ٢٦ نوفمبر وهي من سلسلة مقالات كتبها رئيس تحريرها . وهو كاتب اجتماعي قدير • باحثاً فيها في موضوع القوميات وكيف تندغم وحالة سورية من هذا القبيل : —

« وتلك النزعات الفارقة بين الشعوب السورية لا ترجع الى سبب واحد ، بل ان لكل من السياسة والآداب والشؤون الاقتصادية يداً في ذلك • فاذا كان هناك لدولة اجنبية أثر سياسي حسن فاننا نرى لاخرى الى جانبه أثراً ادبياً او أثراً اقتصادياً ليس اقل منه حسناً •

فاكثر الدول ، او الدول الكبرى باسرها ، ذوات فضل على سورية كل منها بقدر ما كان لها من تدخل في شؤونها المختلفة او بقدر امتزاجها بسورية او امتزاج سورية بها ، ولذلك كان لكل من تلك الدول حق القول ان لها في سورية قلوباً تخفق نحوها •

على انه رغم كل ذلك قد يكون لسورية من قبيل المشابهة ، ومن جراء شدة الامتزاج نزعة اكثر ظهوراً نحو الولايات المتحدة يثيرها فيها امران • الاول انها تشبه الولايات المتحدة ، مع مراعاة الفوارق العددية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، من حيث اختلاف العناصر

فليس في العالم كله بلاد ترحب بتأليف جمعية الامم اكثر من سورية • ومن بواعث الاغتباط ان نرى هذا المشروع الذي جادت به روية رئيس الولايات المتحدة ، أو كما قالت

المكونة منها ، والثاني نها في القرن الاخير الذي تنحصر فيه ابصار جيله وأمانيهم كانت اكثر امتزاجا بالولايات المتحدة منها بسائر بلاد العالم وهذا الامتزاج بادية مظاهره في سورية نفسها وفي الولايات المتحدة •

ففي سورية نرى المدارس الاميركية والرسالات الاميركية والتجارات الاميركية اكثر شيوعاً من كل مدارس ورسالات وتجارات اخر • وفي الولايات المتحدة نرى المهاجرين السوريين من طالبة رزق وطالبة علم اكثر منهم في اي بلد آخر • حتى انهم ليوازي عددهم هناك خمس عددهم في بلادهم، وان ما اكتسبوه هناك من الرزق والعلم اهم من كل ما اكتسبوه في اي عالم آخر • والارزاق والعلوم التي اكتسبوها تتدفق على سورية منذ سنين طوال كل تدفق ، كما انه في غضون هذه الفترة نرى اليد الاميركية تعمل في انقاذ من بقي في سورية حياً وفي اغاثة المنكوب حتى الآن من اولئك الاحياء •

اجل ان ذلك لا يحجب فضل تينك الدولتين الكبريين انكلترا وفرنسا سواء في اعتاق سورية من ربقة الظلم ماضياً وحاضراً وسواء في اغاثة منكوبيها من مختلف الآفات • ولكن انكلترا وفرنسا ليستا على شبه سورية اختلافاً في العناصر ولم يكن امتزاجهما بسورية امتزاج الولايات المتحدة بها •

فوالحالة هذه اننا لا نرى بأساً في ان تحذو سورية حذو الولايات المتحدة في تكوين حياتها القومية • كما اننا لا نرى بأساً اذا كان عطف الحلفاء نحو سورية بالغاً حد التساهل الكلي من ان يزداد الامتزاج القومي تأصلا وظهوراً» .

التيمس « غاية الشعوب الانكليزية » — يخرج من حيز القول الى حيز العمل .

قبل هذه الحرب وبعد مدير وقائعها العظيمة مدة طويلة كان يلوح للمتأمل ان السياسة السرية تحفر قبوراً للامم الصغيرة ومن جملتها سورية . ولكن لما حمي وطيس الوغى واشتدت ويلات الحرب في كل مكان نشطت الانسانية المتألمة وطلبت القضاء على نظام الدسائس الدولية السرية قضاءاً مبرماً .

ولم ير العالم وهو في هذا المأزق . فعلاً أجل قدراً واعظم وقعاً واكثر شهامة من خروج الرئيس ولسن الى الميدان لانقاذ الانسانية وتأييد الحق ونشر المبادىء السامية في الكون . لقد كان من مبادىء الالمان التي كسفتها الديموقراطية الفرنسوية كما ذكرنا في الفصل المتقدم « ان الامم الصغيرة لا حق لها في الوجود السياسي لانها لا تمتلك القوة التي هي العنصر الجوهري للحكم » وان « الحرية الفردية ليست حقاً بذاتها » فالرئيس ولسن الذي أقدم اقدام البسالة والهمة على اعلان السياسة الجديدة القاضية بانشاء جمعية الامم حباً بصون الحقوق الدولية العامة أغدق الرضى والارتياح على قلب كل أمة صغيرة .

لما كانت السياسة القديمة — سياسة ما قبل الحرب — لا تزال ذات حول وطول كان غالباً يستحيل على الامة الصغيرة ان تلجأ الى دولة قوية طلباً للمساعدة بدون ان تعرض نفسها لخطر الوقوع تحت ضغط تلك الدولة المساعدة . فارتقاء المقاصد النبيلة لدرجة

الحكم بوجوب انشاء جمعية للامم من شأنه ان يوجد ضامناً لاية أمة أو قومية تستمد المعونة من غيرها وتطالب العدل والحق .

فجمعية الامم والحالة هذه يجب ان تعد دولة جديدة بعثت الى الكون لتحكم مملكة الديموقراطية العامة بقوة الحق والعدل والمبادىء الانسانية الصحيحة .

لما ذهب الوفد الممثل لجنة جمعية الامم المؤلفة حديثاً في انكلترا للترحيب بالرئيس ولسن في السفارة الاميركية بلندن في دسمبر سنة ١٩١٨ . القى اللورد جراي رئيسها ورئيس الوفد خطبة ترحيب قال فيها : « اننا نعتقد ان هذا الزمن هو أعظم فرصة سانحة لتحسين مستقبل العالم بوجه عام . »

وقال المستر بوارمن في خطاب رحب فيه بالرئيس بالنيابة عن حزب العمال ولجنة الاتحاد التجاري في مجلس العموم ما يأتي :

« أن أقوالك ايها الرئيس جعلت لحرب الامم صفة جديدة صارت بها حرب تحرير وانقاذ . قد اكدت لنا ان جميع الامم التى تطلب الحرية والتي ترغب السير في طريق السلام ستجد منك معيناً ثابتاً وصديقاً حكيماً ومشيراً نصوحاً متى جاء دور المداولة في مؤتمر الصلح ، وايقنا من أقوالك ان الفصل في مشاكل الحرب نهائياً سيكون بيد العدل والحق وحدها . »

٤

الفصل في قضية سورية

أن سورية ترجو، وحق لها الرجاء، ان تزول كل سياسة سرية تختص بمستقبلها بتأثير فعل المبادىء العالية التي نشرت في العالم المتمدن تحت اشراف مملكة الديموقراطية الجديدة — جمعية الامم • ان السياسة السرية جلبت الخراب والدمار لكثير من الامم والبلدان لانها كانت تلغم كل بناء وطني أو قومي كان يقف في سبيل مطامع القوة •

فاذا اتحدت فكرة الشعوب المتكاملة بالانكليزية مع روح الحرية الجديدة الناهضة بفرنسا، ومبادىء الديموقراطية العالية في ايطاليا، والروح القومية السامية في اليابان، يتكون من هذا الاتحاد عامل جديد يزيل تلك البثرة الشنيعة من وجه المدنية المليح •

ورد ذكر « السياسة الصريحة » في جدول أعمال مجلس النواب الفرنسوي في جلسة ٢٩ دسمبر سنة ١٩١٨ اذ قام كل من المسيو بيشون وزير الخارجية والمسيو كليمانصو رئيس الوزراء يبسط لنواب الامة ما يستطاع بسطه من الامور عن مختلف المسائل التي تهم فرنسا وينتظر البحث فيها في مؤتمر الصلح • وكان المسيو فرانكلين بويليون، الذي ترأس « المؤتمر السوري » الافرنجي في مرسيليا

أحد النواب الذين تصدوا لسياسة الحكومة الخارجية طاعنين فيها ، وقد أجاب المسيو كليمانصو على اعتراضاتهم بكلام مملوء صراحة شهر فيه خطتهم قائلاً ان سياستهم « لا تزال توحي بها روح الدسائس السياسية التي كانت تجري قبل الحرب . »

وقد وجه المسيو بوبليون تهماً عمومية الى الذين بيدهم سياسة فرنسا الخارجية فرد عليه المسيو بيشون بكلام طويل قال فيه :

« ان الحكومة الفرنسوية قبلت المبادىء القاضية بإنشاء جمعية الامم وستعمل لتنفيذها وتحقيقها . »

واستطرد المسيو بيشون الكلام الى ذكر سياسة فرنسا قبل الحرب فيما يختص بسورية والى الاتفاق البريطاني بشأن آسيا الصغرى فقال :

« نحن بالطبع نقر بان لمؤتمر الصلح تمام الحرية والحق في تقرير ما يراه مناسباً فيما يختص بالاتفاقات المذكورة ، ولكن هذه الاتفاقات تربطنا وتربط انكلترا معنا فهي نافذة في سياسة الدولتين معاً وهي ستعرض على المؤتمر للبحث فيها . »

وفي يوم الجمعة الواقع في ٢٧ دسمبر سنة ١٩١٨ وقف المسيو كاشين في مجلس النواب الفرنسوي وطعن في السياسة السرية قائلاً : « ان مفاوضات مؤتمر فرسايل يجب ان تعلن . » ... ولما ذكر المسألة السورية قال : « يستحيل ان تظلوا غير مكترثين لشكوى السوريين .... يجب ان نحترم الوحدة السورية . يجب ان نحترم المبدأ الذي حاربنا من أجله وان نعده دين شرف

واجب الوفاء . يجب على الحلفاء ان يردوا الى سورية وحدتها ويمتعوا أهلها بحريتهم ويمنحوهم الاستقلال . أجل يجب على الحلفاء ان يمنحوا الاستقلال لهذا الشعب الذكي الذي انتشر نوابه في العواصم وأظهروا ان لهم اهلية ومدنية راقية . »

وهذه الاقوال وغيرها تدل على انه ان كان للوطنية السورية اضداد في دار الندوة الفرنسوية يسيرون على مبادىء « روح الدسائس التي كانت جارية قبل الحرب » كما قال المسيو كليمانصو فان لها بين النواب اصدقاء ذوي آراء مستقلة .

ثم ان الملاحظات المتقدمة مما قاله الساسة الفرنسيون تفهمنا ان فرنسا راضية كل الرضى بان يترك حل مسألتنا لجمعية الامم ومؤتمر الصلح . فهي مستعدة لالغاء الاتفاقات المختصة بسورية اذا كانت انكلترا تفعل كذلك .

ونحن نرى ان انكلترا تعمل بمقتضى الاعلان الذي أرسلته بالاشتراك مع حليفتها الى السوريين في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ تدعوهم فيه لاختيار نوع الحكم الذي يلائم وطنهم وهو يوضح بعبارة صريحة ان للحليفتين العظيمتين غرضاً واحداً هو تأسيس حكومة أهلية سورية « تستمد سلطتها من الشعب ومحض ارادته . » وكل شعب له ارادة خاصة تشتق من جنسيته العامة فارادة الشعب السوري سورية ولا تكون افرنجية .

وقد اكد لنا الجنرال اللنبي محرر سورية في الخطاب الذي ألقاه في النادي السوري ، أن سورية « لها الحق بان تحرز

مصيرها بكل رجاء وثقة وان مؤتمر الصلح سيطلق حرية السوريين ويمكنهم من انجاح قضيتهم ».

ولم نسمع ان مجلس العموم بحث في أي اتفاق يختص بسورية فنحن غير مقيدين ولنا ان نستنتج ان اتفاق سنة ١٩١٦ الذي أشير اليه فيما تقدم لم يكن الا اتفاقا موقتاً يراد منه تعيين غرض حربي يبرر الزحف في ارض العدو . وهذا الاتفاق ظل معتداً به حتى شهر نوفمبر الماضي فلما صدر البلاغ السياسي المشترك الدال على فضل الحلفاء ، بات الاتفاق الحربي الذي تقدمه ملغياً لا تقوم به دعوى دولية . لان كل اتفاق مبرم يكون واجب التنفيذ قطعاً بتاً . وقد نفذ الغرض الحربي عملاً بذلك الاتفاق تماماً ولكن سياسة الحلم والعدل لم تشأ ان تأخذ سورية بجريرة تركيا ، لذلك قيل للسوريين اختاروا الحكم الذي تريدونه لبلادكم ولم يقل لهم اتفقنا نهائياً فلا سبيل لكم الى اختيار ما تريدون ، وقد سجلت دعوة التخيير في بلاغ رسمي عظيم الشأن فلا نقض لهذا القرار .

ان « اللجنة السورية المركزية » في باريس وغرفة التجارة في مرسيليا أبلغتا الصحف الاوروبية ان الشعب السوري يطلب بالاجماع ان يكون بين سورية وفرنسا اتحاد فعلي . وهذا خطأ بل هذا ضرب من خزعبلات المقامرة . فان أصدق أصدقاء فرنسا في لبنان — ماعدا الحزب الاكليريكي الذي أسمعه المسيو كولوندر خطابه السياسي في كنيسة بيروت — هم مع البلاد فيما تطلبه من الحقوق وما تنزع اليه من الاستقلال .

. فالديموقراطية الفرنسوية الحرة تساعد سورية على ان تتمتع بحرية « سورية » ، وجمعية الامم هي ممها بروحها ومبادئها ، والولايات المتحدة الواقفة مع الامم الصغيرة لا تنسى تلميذتها ، وبريطانيا العظمى التي نالت بما لها من العدل وحسن الذكر في الشرق مركزاً عالياً في هذه الناحية من انحاء العالم تؤيد ما لسورية من الحق الوطني ، ونحن نرجو ان تجعل تحرير جيش الجنرال اللنبي لسورية تحريراً حقيقياً شاملا .

اننا نطلب الحرية في أفضل الفرص ، وسنقابل بالحمد والامتنان كل كلمة تقال في مؤتمر الصلح لفائدة وطننا وتعزيز جنسيتنا السياسية الجديدة وفقاً لسنة الارتقاء في حياتنا الاجتماعية ، ونقدر قدر كل مساعدة سياسية تمكن بلادنا من بلوغ الغاية التي تصبو الى ادراكها .

لما عقدت الهدنة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، ووقف الدكتور ولسن يتلو شروطها على مجلس النواب في واشنطون القى خطبة جليلة يصف فيها ما تنوي الحكومة الاميركية فعله لخير المدنية واسعاد بني البشر بعد ان ألقى العدو السلاح ، وكان في كلامه ما ينعش آمالنا ويقوي رجاء كل شعب من الشعوب المظلومة ، ولا سيما قوله ما يأتي :

« واني واثق بان الامم التي تربت على الحرية ستغلب العالم بقدوتها ومعونتها الودية . أما الشعوب التي تملصت الآن من نير حكم الاستبداد ونالت حريتها فانها لا تجد كنز الحرية اذا بحثت

عنه بنور المشاعيل فقط ، فانها اذا فعلت ألفت جميع الطرق المخضبة بدم ابنائها تؤدي الى الفقر وليس الى مناط رجائها . وهذه الشعوب صارت الآن امام الامتحان الابتدائي فعلينا أن نبقي المصباح مناراً الى ان تسترشد لامرها وتشعر بوجودها وحريتها ويجب علينا في الوقت عينه ان نوجد صلحاً يعين مقامها بين الامم ، ويبرر استقلالها ، ويزيل من قلوبها كل خوف من جيرانها وسادتها السابقين ، ويمكنها من ان تعيش بامان ورفاهية بعد ما تكون قد نظمت امورها . ولست ارتاب في صحة عزمها ولا في مقدرتها وكفاءتها . فاذا اختارت ان تضبط نفسها وتعيش بسلام فاننا نساعدها بكل ما نستطيع واذا لم تختر ذلك وجب علينا ان ننتظر بالصبر والعطف عليها الى ان تستيقظ وتسترد قوتها وهو ما لا بد من وقوعه في آخر الامر . »

٥

سورية للسوريين

أن أول المطالب وأعمها عند أهــل سورية بجملتهـا هو « الاستقلال » فان الفكرة مختمرة في جميع انحاء البلاد ، وهي قد تصاغ بصيغ مختلفة ولكن الغرض واحد غير مختلف ٠

نحن لا نجهل ان كثيرين من المغرضـين والمسخرين الذين تعودوا الدسائس السياسية قبل الحرب يحـاربون أنبل المطالب السورية بطرق غير نبيلة ، في الوطن وفي البلدان الخارجية ، اتباعاً لحركة قوية ناشئة قبـل الحرب مبنيــة على السياسة الاستعمارية ٠ ولكن الوطنيين الصادقين على ثقة تامة من ان دهاقنــة السياسة في دول الحلفاء — المنوط بهم الآن حل أعظم قضية دولية بسطت امام العالم — لا يسمحون بان تربط سورية بسلسلة ذهبية في مؤخر الاقوام بينما الامم الصغيرة تتقدم ناشطة الى الامام لتشغل المراكز الجديدة التي أعدت لها في دائرة الامم الحرة ٠ لقد صدق اللورد كرزون بقوله « يجب ان يكون أعمى البصيرة من لا يرى اننا اذا لم نخرج في هذا الوقت من ذلك العصر القـديم الى حيـاة جديدة نفقد أفضل عصر ذهبي رآه العالم ٠ »

شعارنا بصريح الـكلام هو « سورية للسوريين » ٠ ومطالبنا

الوطنية افرغت في بيان بسطه حزب الاتحاد السوري في الاسكندرية (١) ومصر نقتبس منه ما يأتي :

١ — تكون سورية بجملتها على وحدتها القومية العربية من جبال طوروس شمالاً فالخابور فالفرات شرقاً والصحراء العربية فمدائن صالح جنوباً فالبحر المتوسط غرباً .

---

(١) بعد انجاز كتابة ما تقدم في الاصل الانكليزي وتقديمه للطبع قام فريق من كبار السوريين المشهورين في عالم السياسة والاجتماع (تحت رئاسة العلامة الدكتور فارس نمر من اصحاب المقطم) بحركة جديدة حميدة يراد منها التوفيق بين مختلف الاحزاب حباً بجمع الكلمة فانشأوا حزباً دعوه « الحزب السوري المعتدل » وساروا في سياسته على مبدأ « استقلال سورية بحدودها التاريخية بمساعدة الولايات المتحدة نائبة عن جمعية الامم » . وقد انضم الى هذا الحزب عدد عظيم من ارباب الوطنية الصحيحة ، وبرز حزب الاتحاد السوري في الاسكندرية (برئاسة صاحب السعادة خليل باشا خياط) الى موقف الصراحة التامة في الوطنية فاتفق مع الحزب الجديد وصار واياه حزباً واحداً لان مبادىء الفريقين واحدة من جميع الوجوه تقريباً وحصر رغائبه فيما يلي :
اولا — ان تكون سورية من جبال طوروس شمالا الى حدود صحراء سينا جنوباً ، ومن البحر المتوسط غرباً الى الصحراء العربية شرقاً . بلاداً واحدة متحدة غير متجزئة .
ثانياً — ان يعلن مؤتمر الحلفاء استقلال سورية التام وينتدب دولة لتساعد حكومتها حتى تبلغ الدرجة التي تتمكن بها من حفظ هذا الاستقلال والتمتع به ، وان تكون تلك الدولة هي الولايات المتحدة الاميركية لانها غير مقيدة باتفاقات تستلزم تجزئة سورية .

٢ً — تكون سورية مستقلة استقلالاً تاماً تضمنه جمعية الامم وتضمن قانونه الاساسي ضماناً لا يخل بهذا الاستقلال •

٣ً — تلتمس سورية من جمعية الامم ان تنتدب من قبلها دولة لا غرض لها في البلاد وللبلاد ثقة تامة بها لتنظيم الحكم الجديد فيها الى ان يشتد ساعدها ويصير في استطاعتها ان تقف وحدها بقوة بين الامم الحرة العاملة (١)

٤ً — يكون الحكم فيها على مبدأ الديموقراطية اللامركزية ويكون أساس قوانينها واحكامها مدنياً بحتاً ما عدا أحكام الاحوال الشخصية فانها تبقى على ما هي عليه •

ثالثاً — ان تقسم البلاد الى ولايات متحدة تكون كل منها مستقلة بشؤونها الداخلية ومرجع جميعها الى حكومة واحدة مركزية نيابية مدنية •

رابعاً — ان تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد كلها •

خامساً — ان تكون الديانة مفصولة فصلا تاماً عن الحكومة وسياستها مع المحافظة على احكام الاحوال الشخصية • »

(١) هنا يختلف مبدأ حزب الأتحاد السوري في القاهرة ،لان هذا الحزب يرى ان « تستعين حكومة البلاد بجمعية الامم على انتقاء الاختصاصيين للوظائف الاستشارية العالية التي تمس الحاجة اليها في بادىء الامر »

ولا شك بان التشبع من مطالب الاستقلال التام وتجنب تداخل الدول الاجنبية ناتجان من قوة الوطنية في هذا الحزب الكريم • غير ان طلب الاختصاصيين من جمعية الامم للوظائف العالية « التي تمس الحاجة اليها » يري جمعية الامم ان سورية في الحقيقة تحتاج الى يد اجنبية منظمة في بادىء الامر • والاختصاصي لا يستخدم عادة الا لعمل تكميلي تطلبه هيئة منظمة •

٥— يكون دستور البلاد ضامناً لحقوق الاقليات فيها .

٦— تقسم البلاد ادارياً الى بلاد مستقلة في داخليتها مرتبط بعضها ببعض في مصالحها العامة وتراعى في هذا التقسيم الاعتبارات التقليدية والجغرافية كالاعتبارات المحلية الخاصة في فلسطين وجبل حوران ، وتقاليد القبائل البدوية ، والنصيرية ، في ولايات حلب والشام ودير الزور ، وتقاليد لبنان وحدوده الطبيعية وامتيازاته القديمة .

وقد أفرغت احدى الجمعيات السورية في اميركا المطالب الوطنية في قالب آخر بمعنى ما يأتي :

— ان تستقل سورية بجملتها وتكون لها حكومة أهلية تدير الامور تحت اشراف الدول الثلاث العظمى — الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا — اللاتي لهن الفضل الاكبر على البلاد من حيث المحافظة على الشعب وتحريره .

— ان تكون سورية مؤلفة من بضع ولايات متحدة تتمتع كل منها بالاستقلال المحلي وتكون كلها تابعة لحكومة مركزية واحدة كما هي الحالة في الولايات المتحدة الاميركية .

— للدول الثلاث ان يتفقن على اختيار احداهن للقيام بهذه المهمة ولهن اذا شئن ان ينتدبن لجنة ثلاثية تمثلهن معاً لتأديتها بحيث تتبع في ذلك نظاماً واحداً يصلح لترقية البلاد بجملتها .

ثم ان جمعية « سورية الجديدة » في نيويورك تصرح بطلب الولايات المتحدة دون غيرها لتنظيم سورية .

ويوجد في الوطن فريق كبير من الناس يقترحون ان تدعى الولايات المتحدة لحمل العهدة السورية ، وهذه الفكرة منتشرة الآن بين اكثر السوريين في مصر .

وبالاجمال يقال ان سياسة السوريين المخلصين في كل مكان يفهم منها بجلاء ووضوح أنهم يطلبون لسورية أصح حرية ويتمنون مساعدة اكثر الدول خلواً من الاغراض الخصوصية ، ولا عبرة بما يقال عن « تفرق الكلمة » . على ان سياستنا الاهلية تستوجب السعي الحثيث من قبل رجالنا المفكرين العاملين للوصول الى الغاية الوطنية النبيلة .

لا افتخار الا لمن لا يضام ٭ مدرك او محارب لا ينام
ليس عزماً ما مرّض المرء فيه ٭ ليس هماً ما عاق عنه الظلام

المتنبي

